الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٦ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٣٦٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ٣٨٥ — الثلاثاء ١٢ من جمادى الآخرة سنة ١٣٦٥ — ١٤ من مايو سنة ١٩٤٦ — السنة الثامنة

فهرس العدد

بين مصر وبريطانيا

في الأيام القليلة الماضية اجتازت المفاوضات المصرية مرحلة خطيرة ، بأن انتقلت من دور المحادثات التمهيدية إلى تقرير الأساس الذي يمكن أن تدور عليه المفاوضات . ولقد كان الناس يلومون وفد مصر على أنه لم يجتمع برجال الوفد الآخر لمبادلة الرأي والمناقشة ، ورأى البعض أن يؤاخذ رئيس وفد مصر على استئثاره بهذه المحادثات الأولية . ولعل أكثر الناقدين قد خففوا الآن من نقدهم بعد أن صدر البيان البريطاني عن الجلاء وشروطه ، فأثبت أن المدة التي سبقت اجتماع الوفدين لم تذهب عبثاً . وسواء أكنا راضين عن البيان البريطاني كل الرضى أو بعض الرضى ، أو لم نكن راضين عنه مطلقاً ، فإن من المسلم به على كل حال أن من المستحب أن يكون هناك أساس تدور عليه المناقشات بين الوفدين ، وأن يتقرر هذا الأساس بصورة مقبولة ، قبل أن تبدأ المفاوضات في التفاصيل التي تبنى على هذا الأساس .

وعلى الرغم من أن هذا الأساس الذي تدور عليه المفاوضات قد صدر به بيان بريطاني ، فقد وافق عليه رئيس الحكومة المصرية ، مما يدل على أنه كان نتيجة الجهود التي بذلها الوفدان ، وبعد مشاورات كثيرة جرت في مصر ولندن . وقد أعلن هذا البيان في يوم الثلاثاء ، أي في صباح اليوم التالي لعيد جلوس جلالة الملك ، حتى لقد رأى الكثير من الناس أنه لم يكن مجرد بيان من العلاقات بين مصر وبريطانيا ، بل أن صدوره في هذه المناسبة ، كان بمثابة تحية يرفعها الجانب البريطاني إلى مصر ومليكها بهذه المناسبة الكريمة .

ومن الواجب علينا أن نطالع هذا البيان بكثير من الدقة وإنعام النظر ، دون أن نتأثر بالصيحات المختلفة التي تصدر عن بعض كتابنا ، سواء أكانت صادرة عن نية خالصة ، أو كانت مما يقصد به شيء آخر سوى وجه الله والوطن .

يقول البيان المذكور : « إن السياسة المقررة للحكومة البريطانية هي توطيد محالفتها مع مصر على أساس المساواة بين أمتين تجمع بينهما مصالح مشتركة » وليس في هذا النص أمر يجوز لنا أن ننفر منه أو أن نسيء الظن به . إذ لا شك أن بيننا وبين البريطانيين مصالح مشتركة ، اقتصادية وسياسية . وعلاقات صداقة ومودة لا سبيل إلى جحودها . بل إننا لا نغلو كثيراً إذا قررنا أن المصالح المشتركة بيننا وبين الانجليز لا يزيد عليها في القوة والخطر ، سوى المصالح التي بيننا وبين العالم العربي . ومهما اختلفنا في تقدير ما لهذه المصالح من الخطر ، فإننا لن نختلف في أنه ما دامت هنالك مصالح ، فلابد من صيانتها والمحافظة عليها ، من كل خطر تتعرض له ، سواء أكان هذا الخطر صادراً من دولة ثالثة ، أو من الرجعيين البريطانيين أنفسهم .

أما النص على المساواة بين الأمتين فليس أظن أن هنالك من يعترض عليه . وحسبنا أن هذا النص يتيح للمفاوض المصري حجة قوية يرد بها كل محاولة تنقص تلك المساواة التامة بين الدولتين ، التي لم تعد الآن موضعاً للأخذ والرد .

أما النص ، على توطيد المحالفة مع مصر ، فقد يعترض عليه بأنه لم تعد هنالك حاجة شديدة لعقد محالفة ، بين دولتين كلتاهما عضو في هيئة الأمم المتحدة . وهذا اعتراض قليل الغناء ، لأن كثيراً من الأمم المتحدة قد عقدت بينها محالفات خاصة ، كما هي الحال بين روسيا وفرنسا ، وبين روسيا وتشيكوسلوفاكيا ، وكما هي الحال في الحلف الأمريكي الذي يضم جميع الدول الأمريكية . وفي الجامعة العربية نفسها ، التي يرجى أن تضم في وقت ما جميع البلاد العربية . فليس في هذه المحالفات وما يجري مجراها ما يناقض نظام الأمم المتحدة ، ما دامت شروطها لا تتعارض وميثاق الأمم المتحدة . ولقد كان الرأي السائد في سان فرانسيسكو أن مثل هذه المحالفات فيها تأييد للنظام الاجتماعي وتقوية له . ولذلك أفرد لها باب خاص في الميثاق تحت عنوان « الاتفاقات الإقليمية » .

وهذه « الاتفاقات الإقليمية » في الوقت الحاضر لها فائدتان : الأولى أن هيئة الأمم المتحدة لا تزال في عهد مهدها ، ولم يتم بعد تأليف أداتها السياسية والعسكرية ، ولا بد من تدابير مؤقتة تستطيع الاضطلاع بعبء الأمن ورد العدوان ريثما تستكمل الأمم المتحدة نظمها وتشتد سواعدها . الفائدة الثانية أن هذه الاتفاقات الإقليمية تحدد المجال الذي تستخدم فيه القوات العسكرية لكل دولة . بحيث لا يكون هنالك داع لأن تنقل تلك القوات إلى أقطار بعيدة من أجل المحافظة على الأمن فيها ، بل تتكفل كل هيئة إقليمية بأمر الدفاع في منطقتها ، حيث تتركز مصالحها المباشرة .

وعلى هذا لا نرى أن هنالك بأساً كبيراً في أن يلح البيان البريطاني على توطيد المحالفة مع مصر ، وخصوصاً أن المحالفة قائمة فعلا بمقتضى المعاهدة المعقودة بين الدولتين . ومع التسليم بأن الظروف قد تغيرت ، وأن شروط هذه المعاهدة لم تعد تتمشى مع التطورات التي ترتبت على الحرب الأخيرة ، فإن الاعتراض لا ينصب على مبدأ التحالف ، بل على الشروط التي تضمنتها وثيقة التحالف .

* * *

ننتقل الآن إلى الجزء الثاني من البيان البريطاني ونصه : « عملا بهذه السياسة بدأت المفاوضات في جو من المودة وحسن النية . عرضت الحكومة البريطانية أن تسحب جميع قواتها البحرية والبرية والجوية من الأراضي المصرية ، وأن يقرر بالمفاوضات تحديد مراحل جلائها ، والموعد الذي يتم فيه والتدابير التي تتخذها الحكومة المصرية لتحقيق التعاون في حالة الحرب أو خطر حرب وشيك

الوقوع ، طبقاً للمحالفة » .

وإذا ضربنا صفحاً عن الديباجة نرى أن هذا الجزء من البيان ينص على ما يأتي :

أولاً : أن تسحب الحكومة البريطانية جميع قواتها من غير استثناء .

ثانياً : أن تجرى بين الطرفين مفاوضات من أجل أمور ثلاثة وهي :

(١) تحديد مراحل الجلاء .

(٢) الموعد الذي يتم فيه .

(٣) التدابير التي تتخذها مصر في حالة حرب أو خطر حرب ، والتعاون طبقاً للمحالفة .

وهكذا عرضت الحكومة البريطانية أمرين متصلين مرتبطين ، ولا شك أنها أرادت أنهما لا يقبلان الانفصال . فأما الأمر الأول وهو الجلاء التام من الأراضي المصرية ، فلا أظن أن أحداً سيعترض عليه . اللهم إلا القائلين بأن من الواجب الجلاء التام من مصر والسودان في آن واحد . وأن يتم هذا الجلاء تاماً دون أن تكون هنالك مفاوضات أو معاهدات أو محالفات من أي نوع كان .

وعلى الرغم من أن هذا الفريق موجود في مصر وله صوت محترم ، فإن أكثر أصحاب الرأي في مصر يرون أن هذه السياسة ليست « عملية » وأنها لن تأتي بالفائدة المرجوة ، ولن تؤدي إلى تحقيق الهدف ، الذي لم يختلف في أمره أحد .

لهذا رأينا أكثر الكتاب يرحبون بما عرضته الحكومة البريطانية من أمر الجلاء التام عن الأراضي المصرية ، ويرون أن هذا الإعلان خطوة حميدة ، لأنها تزيل أكبر العقبات القائمة في سبيل أي تفاهم من أي نوع كان بين مصر وبريطانيا .

ولم يكن مما يقبله العقل أن تصر بريطانيا على بقاء قواتها في مصر بعد أن بذلت هي جهداً مشكوراً من أجل الجلاء عن سوريا ولبنان . وبعد أن قرر ميثاق الأمم المتحدة المساواة التامة في السيادة السياسية بين جميع أعضائه .

أما الجزء الثاني من البيان وهو أن تجرى بين الطرفين مفاوضات فليس عليه اعتراض من جهة الشكل . فإن البرلمان المصري قد اختار وفداً خاصاً للقيام بهذه المفاوضات ، ولكن الذي يجوز الاعتراض عليه هو « الموضوع » الذي تضمنه البيان ؛ وذلك أن المفاوضات ستتناول ثلاثة أشياء .

(١) أولها تحديد مراحل الجلاء . أي أن هذا الجلاء سيكون على مراحل قليلة أو كثيرة ، كأنما يراد ألا يتم دفعة واحدة . فيبدأ أولاً بالجلاء عن مدن كالقاهرة والإسكندرية ، ثم جلاء القوات البحرية والجوية ، التي لا تستطيع بعد ذلك أن تزور المياه والمطارات المصرية إلا طبقاً للقانون الدولي ، أو الاتفاقات الدولية . ثم يتبع ذلك تصفية المنشآت العسكرية وغيرها ، وغير ذلك من الأمور التي قد تتطلب إجراءات خاصة في نقلها وإخلائها .

ولا شك أن جلاء قوات مضى على وجودها في مصر [illegible] وستون عاماً ، وازدادت منشآتها وتعقدت أحوالها بسبب حرب عالمية ضخمة ، ليس بالأمر الذي يتم بين عشية وضحاها . ولكن من الجائز أن يكون هنالك إسراف في تقدير مراحل الجلاء . وربطه بشروط وملابسات قد لا تمت إلى الحقيقة بصلة . ولكنا إذا افترضنا حسن النية من جانب أولي الأمر من البريطانيين ، فليس من المعقول أن تؤول فكرة مراحل الجلاء تأويلاً يهدم مبدأ الجلاء من أساسه .

(٢) لذلك جاء النص الثاني متمماً الأول ، وهو تحديد الموعد الذي يتم فيه الجلاء . فليس مما يهمنا كثيراً أن يحدث الجلاء على (مراحل) مهما تعددت أو تنوعت ، وإنما يهمنا أن يتم في موعد قريب معقول . وأن يحدث بنية خالصة ، لا يشوبها تردد أو تشكك .

(٣) أما الموضوع الثالث للمفاوضات ، فلعله أهمها جميعاً وهو التدابير التي تتخذها مصر في حالة حرب ،

أو خطر حرب وشيكة الوقوع . . وذلك طبقاً لمبدأ التعاون بين الدولتين ، ذلك المبدأ الذي قررته المحالفة .

فني هذا النص توكيد جديد لفكرة المحالفة ، وتقرير مبدأ التعاون بين مصر وبريطانيا في حالة العدوان أو احتمال العدوان ، على الأراضي المصرية . ومدى هذا التعاون ، والصورة التي سيتخذها هذا التعاون . ولست أظن أن لنا الحق في أن نخشى فكرة المحالفة ، أو أن نوجس شراً من أن هذا التعاون في وقت الحرب سيخول البريطانيين سلطاناً ونفوذاً في وقت السلم ، وقد كان بين بريطانيا وفرنسا مثل هذا التحالف والتعاون قبل الحرب ، ولم يكن في ذلك ما يجرح كرامة الدولتين أو ينقص من سيادتهما .

فليست العبرة في هذا بتقرير مبدأ التعاون في ذاته ، بل في الشروط التي يقوم عليها هذا التعاون . ومن أجل هذا يحسن بنا أن ننظر إلى الشق الأول من هذا النص ، وهو النص ينص على أن موضوع المفاوضة هو التدابير التي تتخذها مصر . . ولم يقل التدابير التي يتخذها الطرفان ومعنى ذلك فيما يبدو هو أن العبء الأكبر في العمل لدرء الخطر سيقع على مصر . على الأقل في أثناء المراحل الأولى من العدوان . ولئن كانت مصر هي التي ستتخذ التدابير اللازمة لدرء الخطر ، فإن هذا يتطلب من غير شك أن يكون لها من العدة الحربية والقوات البرية والبحرية والجوية ما يمكنها من مواجهة العدوان بمفردها ، فإذا استطاعت أن تتغلب عليه وحدها ، كان هذا خيراً . وإلا فلا شك في أن مصر لن تتردد في طلب مؤازرة حلفائها من أعضاء هيئة الأمم المتحدة أو من الأمم المتحدة نفسها .

وأهم شيء في هذا النص هو أنه يلزم مصر أن تؤلف قوة دفاعية لرد العدوان من المنطقة التي تهم مصر ، وهذا الأمر سيتطلب من مصر أن تنمي جيشها وقواتها البحرية والجوية . حتى تستطيع أن تضطلع بنصيبها في قضية الأمن الدولي . ولئن أصبحت لمصر هذه الكفاية الدفاعية فليس هنالك أدنى خطر عليها من أن يؤدي التعاون بينها وبين بريطانيا إلى عودة النفوذ البريطاني أو العدوان على استقلال مصر .

وهكذا يرى القارئ ، أن ليس في البيان البريطاني نص — مهما أسرفنا في تأويله أو تفسيره — يضر بالمبدأ الأساسي للمفاوضات ، بل لعله يمثل نقطة ابتداء طيبة لتلك المفاوضات . ومما يؤسف له كثيراً أن حزب المعارضة في بريطانيا لم يستطع أن يؤيد هذا الاتجاه الجديد لسياسة الحكومة البريطانية ، ولقد أثبت مستر تشرشل أنه قائد عظيم للحرب . ولكنه قصير النظر في شئون السلم ، وكأنه قد مرت به هذه الأحداث الهائلة دون أن يتعلم منها حرفاً أو أن تغير من جبلته وطباعه . فأصبح ينكر هو وعصبته تلك المبادئ الإنسانية العظيمة التي تضمنها الميثاق الأطلسي ، ولم يجدوا بأساً في الحنث بالعهود التي قطعوها على أنفسهم بأنهم إنما يشنون هذه الحرب من أجل إنشاء عالم جديد قوامه السلم والرخاء والحرية لجميع الشعوب .

ولقد اشتركت حكومة مستر تشرشل في إنشاء نظام الأمم المتحدة ، ولسنا ندري كيف طوعت له نفسه أن ينادي بهدم الأركان الأساسية التي يقوم عليها هذا النظام !

إن من الوهم حقاً أن تصبح العلاقات بين مصر وبريطانيا مسألة حزبية ، فإننا لا نريد أن يكون لنا أدنى صلة بالاختلافات الحزبية في بريطانيا . ويهمنا أن يدرك المحافظون كما يدرك غيرهم أن اكتساب صداقة الشعب المصري هو خير وسائل الدفاع عن مصر وعن قناة السويس . وأن قضية السلم العالمي قضية واحدة لا تقبل التجزئة ، وأن هذا السلم لا يمكن أن يستقر إلا على أساس من العدل والإنصاف . وأن أبعد شيء من العدل الدولي أن تقيم أمة جيشاً أو قواعد عسكرية في أرض أمة أخرى .

محمد عوض محمد

الزعامة والزعماء

عودتنا الطبيعة أن نرى — في كل مجموعة من المجموعات — من يحتل مكان الصدارة منها، ويتميز بصفات خاصة عن سائر أفرادها.

حتى في النبات، تجد في كل مجموعة نبتة رائعة تلفت الأنظار إليها بسموّ في نموها، أو بإزهارها زهرة تميزت بالجمال، وفي البستان سرعان ما ترى شجرة فاقت أقرانها بجمال استوائها، أو بنموها وتفوقها، أو بكثرة أثمارها، أو حلاوة ثمرها، والنخل يزرع في أرض واحدة ويسقى بماء واحد.

وهذا في عالم الحيوان أظهر، فلكل خلية نحل لها مملكة تأمر فتطاع، وتدعو فتجاب:

مملكة مدبَّرة بامرأة مؤمَّرة
تحمل في العمال والـ صناع عبء السيطرة
فاعجب لعمال يولّـ ون عليهم قيصرة

وفي كل قطيع خروف متميز، وفي كل قبيل [illegible] ديك متفوق.

فإذا أتيت إلى الإنسان فالأمر فيه أبين. في كل مجتمع رئيس، بدواً كانوا أو حضراً، أطفالاً أو كباراً، رجالاً أو نساء. تجمع الطلبة في الفصل فيكون لهم في الذكاء أول، وتجمعهم في الألعاب الرياضية فيكون بينهم في ألعابهم مظفر، وتجري بينهم سباقاً في أي ضرب فيكون منهم الفائز، وفي البدو شيخ القبيلة، وفي الحضر الأمير، وفي الديانة الشيخ والقسيس، وفي الحكم المدير والوزير، وفي شؤون الاجتماع المصلح، وفي السياسة الزعيم.

* * *

وإذا كان هناك تفوق ورئاسة فهناك يستلزم سلطة وسيطرة من جانب، وخضوعاً وطاعة من جانب.

قف وقفة في حظيرة الدجاج تر السيادة والخضوع بين الديكة بعضها وبعض، والدجاج بعضه وبعض، والديكة والدجاج معاً، عند التقاط الحب، وحسو الماء، واختيار المكان الصالح للنوم، وهكذا.

وانظر إلى الأسرة يسودها الرجل، وامتزج فيها ضروب السيطرة وضروب الخضوع، وانظرها يسودها المرأة، وتجمع الأمر والنهي والذلة والاستسلام، وهكذا. فإن كانت سيطرة هنا كان خضوع هناك — وقد تتجاور السلطة والذلة في الشخص الواحد، فقد يكون الرجل مسيطراً بماله وشبابه، ثم ينقلب خاضعاً لفقره وشيخوخته، وقد تسيطر المرأة طفلاً، ثم تزول السيطرة وتزول.

* * *

ومخايل السيطرة والسيادة كثيراً ما تظهر في الأطفال منذ نشأتهم، كالذي روي أن رجلاً نظر إلى معاوية وهو غلام صغير فقال: إني أرى هذا الغلام سيسود قومه. فقالت أمه هند: ثكلته إن كان لا يسود إلا قومه.

وقد تكون السيطرة من وراثة ونشأة، كالبذرة الطيبة تحسن إذا أحسن تعهدها، وتأتي البيئة فتنمي هذه الوراثة وتنشئها، وقد تسوء فتضعفها أو تميتها؛ ولمنزلة الطفل في الأسرة أثر كبير في تقوية خلق السيطرة أو إضعافه، فقد يكون الطفل أول ولد لأبويه ثم يرزقان بطفل آخر فيحولان عطفهما وتدليلهما إليه، فيثور الأول ويجتهد أن يلفت النظر إليه بعنفه وقوته وسطوته، فينشأ عنده حب السيطرة، ثم تساعده الظروف الأخرى خارج البيت كتفوقه في لعب أو أوليته في فصله، أو نحو ذلك، فيمتد كل ذلك إلى السيطرة في الحياة، وقد يقسو الأب أو المعلم على الناشئ، فيدفعه ذلك إلى مقابلة القسوة بالقسوة، فيتولد عنده حب السيطرة، وقد تزيد قسوة الأب أو المعلم فتميت نفس الناشئ وتذله، وهكذا. مئات ومئات مما يجري في الحياة — من كتاب يقرؤه ودين يدين به وأصدقاء يعاشرهم وعمل يتولاه، وروايات يراها،

وشعر بحفظه الخ — كلها تؤثر في مصيره من السيطرة أو الخضوع .

والزعيم يتفاعل مع بيئته فتكوّنه ويكوّنها ، وتغذيه ويغذيها ، وبعض الناس قد منح من القوة ما تمكنه من الزعامة حيثما حلّ وأنّى رميت به ، كالذي يصفه المتنبي :

أنا حلّ في فرس ففيها ربها(١)
كسرى تذل له الرقاب وتخضع
أو حلّ في روم ففيهـا قيصر
أو حلّ في عُرْب ففيها تُبّع

* * *

وليست كل سيطرة زعامة ، فهناك سيطرة بحكم المنصب كالمأمور في مركزه أو المدير في مديريته أو الوزير في وزارته أو القائد في جيشه ، فهذه كلها لا تخول لصاحبها أن يسمى زعيما .

وهناك سيطرة بسبب الملكية كسيطرة مالك الأرض على فلاحيه ، أو صاحب المصنع على عماله .

وهناك سيطرة بسبب نظام الطبقات كسيطرة ذوى البيوتات الكبيرة على ذوى البيوت الصغيرة ، وسيطرة الباشا على من هم أقل منه مرتبة ، أو الموظف في الدرجة الأولى على من في الدرجة الخامسة ، أو نحو ذلك ؛ فهذه كلها ليست زعامة ، إنما ركن الزعامة هو خضوع الجم الغفير من الناس بإرادتهم واختيارهم لمزايا خاصة يرونها في الزعيم .

* * *

والصفات التي تستوجب الزعامة تختلف باختلاف نوع الزعامة ؛ فهناك زعامة سياسية وزعامة علمية وزعامة دينية وزعامة حربية الخ ، كما أنها تختلف باختلاف الجماعات وتصورهم المثل الأعلى للحياة . فما كان عند العرب — مثلا — المثل الأعلى عماده الشجاعة والكرم كانت الزعامة عمادها هاتان الخصلتان . وقد قال عمر : «السيد هو الجواد حين يسأل ، الحليم حين يستجهل ، البار بمن يعاشر» فجعل السيادة في الكرم والحلم والعطف ، وعدّوا سلم بن قتيبة سيداً «لأنه كان يركب وحده ويرجع في خمسين» فجعلوا السيادة في الشجاعة ، كما جعلوا من شروط السيادة صفات سلبية كالترفع عن الصغائر فقالوا : «لا سودد مع انتقام» الخ . واليوم نعد من أهم صفات الزعيم الذكاء وسعة العقل والثقة بالنفس والرحمة بالناس والعطف عليهم والقدرة على ابتكار الخطط وحب النضال والصرامة في القول مع القدرة على الدعاية ، هذا إلى الصبر على الشدائد واحتمال المكروه ، فلا زعامة من غير عنت ، كما يقول الشاعر :

أترجو أن تسود ولا تُعنّى ... وكيف يسود ذو دعة بخيل ؟

ويختلف الزعماء في تفوقهم في هذه الصفات أو بعضها ونسبة تفوقهم فيها ، وقد يفقدون بعضها ويستعيضون عنها بتفوقهم في بعضها الآخر ، وهكذا .

ثم إن هذه الصفات قد يتصف بها الزعيم حقا ويتخلق بها صدقا ، وقد يتصنعها رياء ، فلا تنطلي إلا على رأي عام لم ينضج ، وشعب لم يكتمل .

* * *

كذلك الزعماء أشكال وألوان ؛ فهناك الزعيم الضاغط المتحكم الذي يضطر الجمهور أن يؤمن به وأن يتوجه كما يوجهه ، ويسد عليه منافذ تفكيره ومنافذ مشاعره ، ويدفعه دفعاً إلى ما يريد هو ، مثل هتلر وموسوليني وبعض مؤسسي المذاهب الدينية — وهناك الزعيم الذي يمثل عواطف الجماعة ومشاعرها ، فيكون للجماعة آمال ومشاعر فيها شيء من الغموض وشيء من الميوعة ، فيأتي هو ويوضحها ويعقلها ويبلورها ، ويكون لسانها القوي في التعبير عنها وقلبها الحار الذي ينبض بأمانيها ، ويكون هذا سر زعامته ،

(١) أي فهو فيها ربها وكسرى بدل من ربها وكذلك قوله ففيها قيصر وفيها تبع أي فهو فيها قيصر وتبع .

في سبيل الإستقرار :

كلمة صريحة

[قلنا في العدد الماضي إن أسباب تقلب حياتنا وحوادث مشروعاتنا ترجع إلى عدم توافر عناصر الاستقرار ودوافع الاستقرار، وذكرنا أهم هذه الدوافع وتلك العناصر في رأينا. والآن نورد أمثلة عملية لذلك ولاسيما فيما يتصل بالمشروعات الحكومية أو التي لها اتصالات رسمية ونشرح ما نراه علاجاً لهذه الحال]

ننظر أولاً إلى الناحية السياسية وما يتصل بها:

فالأحزاب عندنا تقوم على أسس عامة غير محدودة، وليس لأي واحد منها برنامج عملي واضح، ولا تربط بين أعضائها وحدة عامة في التفكير، أو اتحاد خاص في الشئون القومية العامة.

وقد جرت العادة أنه حين تأليف الحكومة الجديدة عندنا تتقدم سواء في خطاب العرش أو في بيان تعرض فيه سياستها ولا تدع فيه فرعاً من فروع إدارتها أو وجهاً من أوجه الإصلاح إلا أتت عليها وتعهدت بالقيام بها وأعلنت تنفيذ إصلاحاتها في أقرب وقت. وعند ذلك يهلل لها الناس ويكبرون ويتفاءلون بعهدها ويرجون الخير الكثير على يديها، ولكن هيهات أن تتحقق آمالهم وينفذ البرنامج.

ومن الظواهر الأولية المزرية أن تغيير الحكومة في مصر يصحبه في معظم الحالات وقف لدولاب العمل، بل واضطراب في سير معظم الأعمال الحكومية، ولا سيما المشروعات الجديدة. فكل ما فكر فيه الوزير السابق وشرع بعد المدة للتنفيذ، يقف أو يلغى أو يوضع على الرف ولو مؤقتاً.

ثم يبدأ الوزير الجديد في دراسته الجديدة لجميع نواحي وزارته دراسة تكون بطبيعة الحال سطحية ولو في أول الأمر، لأنه يريد أن يكسب الوقت ويختصر الطريق رغبة منه في رسم خطة جديدة، يطلع على الناس بها فتستهوي نفوسهم وتفوز بإعجابهم حين تملأ أسماعهم، كأنها سياسة ساحرة، أو لعلهم يجدونها أدنى إلى آمالهم من التي سبقتها، فيتفاءلون كما فعلوا من قبل، ويهتفون ويصفقون ويتطلعون إلى الفجر الجديد.

[illegible] عندنا ليس له نظير في البلاد الراقية الأخرى التي انتظمت فيها الأمور وأقرت المسائل واستقرت بها سياسة محدودة لكل ركن من أركان الحياة العامة ولكل إدارة من الإدارات الحكومية.

يستطيع أن ينطق بما يشعرون ولا ينطقون، ويحدد الأغراض التي لا يحددون، ويقودهم إلى تحقيق ما يؤمل ويؤملون.

ومن ناحية أخرى هناك الزعيم الثائر والزعيم المعتدل:

فالزعيم الثائر لا يرعى التقاليد والأوضاع ويدعو إلى الوصول لهدفه بعنف وقوة، لا ينظر إلى الماضي ولا إلى الحاضر، ولكن يستشعر بالصورة التي يرسمها للمستقبل — والزعيم المعتدل يرعى الأوضاع والتقاليد ويدعو إلى التقدم البطيء، ويربط الماضي بالحاضر والحاضر بالمستقبل، ويرى أن الطفرة محال، وخير الإصلاح ما استطاعه الشعب، وخير السير ما كان إلى الأمام في أناة — ولذلك يرمي الثائر الأول الجمهور ويرمي الأول الثاني بضعف العزيمة والجمود.

ومن ناحية الموضوع نرى أن هناك زعيماً دينياً وزعيماً سياسياً وزعيماً اقتصادياً وزعيماً علمياً، وهكذا.

وهم على اختلاف أنواعهم وألوانهم تحتاج إليهم الأمة حاجة الجيوش إلى قوادها، والسفينة إلى ربانها، وكما يحتاج قائد الجيش وربان السفينة إلى ثقافة خاصة ومران شاقة، كذلك الزعامة من كل نوع، ليست لعب أطفال ولا امتيازاً على تزويق كلام، ولا على ضخامة مال — إنها قيادة أمة، تعتمد على ثقافة وعلم وفن واستعداد خاص ومران طويل.

(يتبع) أحمد أمين

ويرجع ذلك إلى أن القائمين على تسيير دفة الأعمال وتشغيل دولابها هناك ليسوا هم الوزراء كما هي الحال بمصر، وإنما هم موظفون دائمون لهم أقدام فنية راسخة، وخبرة عملية عالية، ورأي ناضج مجرب ومعترف به، وحرية كاملة لا تتقيد بأي اعتبار سوى المصلحة العامة والمقتضيات الفنية. ومن ثم كان تغير الوزارات في أمثال تلك البلاد لا يحدث أدنى اضطراب بل ولا يسبب أدنى قلقلة.

فلا نزاع إذاً في أن الحل الوحيد لمشكلتنا هذه في مصر هو حل أستأذن أصحاب المعالي الوزراء في أن أقوله بصراحة، ألا وهو ألا يتدخل الوزير في دراسة مشروعات وزارته وإعدادها، ولا أن يترأس اللجان التي تؤلف لهذا الإعداد وتلك الدراسة تمهيداً لوضع سياسة عامة ثابتة تتوافر لها الاستقرار والاستمرار المنشودان والضروريان.

والأسباب التي أملت علينا هذا الحل واضحة، وتتلخص في أن دراسة المشروعات وإعدادها ووضع خططها وأسسها يحتاج كما قدمنا في مقال الأسبوع الماضي إلى لجان فنية دائمة مستقيمة يفسح للقائمين بها الوقت ويكفل لهم من الحرية القدر اللازم ليخرج المشروع متيناً ناضجاً مضمون النجاح.

والوزراء يكونون غالباً غير فنيين، ولا يتسع وقتهم للتفاصيل الفنية والدراسة الدقيقة إن كانوا فنيين، كما أنهم جد حريصين على الخروج للناس بسياستهم الشخصية في أقرب وقت مستطاع. هذا إلى أن وجودهم قد يفرض على لجان البحث والدرس إذا اشتركوا فيها اتجاههم إن لم نقل آراءهم، وهذا الفرض قد يأتي ظاهراً أو مستتراً، وقد يأتي مقصوداً أو عفواً.

والمهمة الحقيقية الأصلية للوزراء هي استعراض النتائج التي يصل إليها الفنيون ودراسة التقارير التي يقدمها هؤلاء، بروح محايدة وبأفق واسع غير متحيز لفريق ولا لرأي ولا متأثر بأي اعتبار شخصي أو حزبي. وهذا لا يتأتى للوزير أن يقوم به على الوجه الأكمل لو أنه زج بنفسه في ميدان البحث الأولي التفصيلي، كما رأينا بعض الوزراء يفعلون في العهود الأخيرة.

ولنضرب مثلاً بوزارة المعارف، وهي من أكثر الوزارات تأثراً بعدم الاستقرار في حين كان يجب أن تكون من أكثرها استقراراً. فمنذ أن تسلم المصريون زمام هذه الوزارة نرى كل وزير يأتي فينفذ ما يعن له من مقترحات كان أغلبها سطحياً لا يتناول الأساسيات، اللهم إلا ما حدث في عام ١٩٢٥ ولم يكتب له الاستمرار.

وقد كانت النتيجة أنه لم ترسم إلى الآن سياسة ثابتة للتعليم تقوم وزارة المعارف بتنفيذها.

ومنذ سنوات قليلة تراءى لمعالي وزيرها أن يحدث تغييراً جوهرياً في نظام التعليم، فاعتمد على نفسه في البحث وتنقيب في الكتب والتقارير الحديثة يدرسها، ويعرف منها كيف يخرج على الناس في آخره بتقريره المشهور الذي ضمنه سياسته التعليمية الجديدة، ثم أخذ يصدر القرارات لإرسال الفنيين لتنفيذها، ولكن لم تنقض شهور على بدء هذا التنفيذ حتى بدأت العيوب تظهر كما كان مقدراً لها، لأن عناصر الاستقرار ودواعي الاستمرار لم تتوافر لهذه السياسة الجديدة.

ومن الغريب أن معالي الوزير قد اعتمد في دراسته على كثير من التقارير التي وضعت في إنجلترا، ولم يوح إليه الأسلوب الذي أعدت به تلك التقارير إلى أن يحذو حذوه هنا بمصر. ذلك الأسلوب الذي اقتضى إفساح الوقت للجان التي وضعت كل واحد من هذه التقارير، وحرص هذه اللجان على تعرف آراء الفنيين على اختلاف اتجاهاتهم واختلاف مراكزهم، وأولياء الأمور على اختلاف نزعاتهم وميولهم وعقلياتهم، ورجال الأعمال التي توظف المتعلمين وتعرف عيوبهم وما يجب أن يتوافر في تعليمهم. ولذلك جاءت تلك التقارير آية في الإحكام والاعتدال والمرونة.

وهذا الأسلوب هو الذي ندعو إلى الأخذ به في مصر أيضاً .

وكانت النتيجة بطبيعة الحال أنه بمجرد تغير هذا الوزير بدأت العملية التقليدية ، وهي التغيير والتبديل والترقيع والتماس سياسة أخرى على نفس السبيل أو ما يشبهه ، وهكذا دواليك .

وقد آن الأوان لأن تؤلف هيئة فنية قوية دائمة يعهد إليها بدراسة من النوع الذي ندعو إليه ، حتى يتفسح الأمل في أن تظفر بعد زمن معقول (لا يقل عن عام) باقتراح لسياسة مدروسة قائمة على أساس من الإحصاءات الدقيقة والاستفتاءات الوافية ومراعاة ظروفنا الخاصة الاجتماعية والاقتصادية ، ثم تطرح هذه السياسة على الناس ، وتكون محل مناقشة بكل حرية بواسطة الهيئات العامة تعليمية وغير تعليمية ، والمجلس الأعلى للتعليم ومجالس الأحزاب والبرلمان بمجلسيه في هدوء وأناة ، في مدى فترة معقولة (لا تقل عن عام أيضاً) حتى نصل إلى سياسة رشيدة يطمئن إليها الجميع ويتحقق لها الثبات والاستقرار اللذين توافرت عناصرهما ودواعيهما .

ومن أهم دواعي هذا الاستقرار أن تكون تلك الهيئة الفنية كما قلنا دائمة بحيث يعهد إليها بالإشراف على تنفيذ السياسة التي يتفق عليها وعلى تبين عيوبها في دور التنفيذ ، واقتراح إصلاح هذه العيوب أولاً فأولاً ، في ضوء ما تسفر عنه التجربة ، فلا يمكن أن يكون أي مشروع كاملاً من الناحية العملية ، وهو إنما يكمل مع الزمن بشرط موالاة الملاحظة والفحص ، والاستماع للنقد واقتراح المناسب لمعالجة كل عيب أو نقص .

وهذا الكلام الذي قيل في سياسة التعليم وكيفية رسمها يصح أن يقال مثله عن مشروعنا الجديد لمكافحة الجهل والفقر والمرض . فإنا نرجو أن يكتفي أصحاب الدولة والمعالي الوزراء بوضع الخطة العامة التي يصح أن تكون محل اعتبار في وضع السياسة النهائية ، ثم تؤلف الهيئة الوزارية الحالية التي تعنى بالموضوع هيئة أخرى من رجال فنيين يتولون دراسته بالأسلوب الذي ندعو إليه ، والذي يضمن للسياسة التي ترسم لهذا المشروع الخطير عناصر الاستقرار ودواعي الاستمرار .

وهذا المشروع سيكون أصعب من غيره لما يقتضيه من تعاون بين مختلف الهيئات والمصالح ، وقد علمتنا التجارب أن هذا التعاون لم يتحقق للآن في أي عمل من الأعمال على الصورة الواجبة ، ويكفي أن نشير إلى مسألة واحدة يحسها كل منا في الحياة العامة كل يوم ، ألا وهي أن الشارع يرصف اليوم وينفق في إنجازه وقت وجهد ومال كثير ، ولا نلبث أن نرى مقتضيات مصلحة أخرى (كالمجاري أو المياه أو النور) قد استلزمت حفره من جديد وهدم العمل الذي تم .

وقبل أن نختم هذا المقال نشير إلى مثل آخر غاية في الأهمية ألا وهو مشروع « كهربة خزان أسوان » فهو تعرض في عهود الوزارة لتقلبات السياسة ، وللاعتبارات الحزبية على الرغم من أنه مشروع فني اقتصادي صرف ، وكان الواجب من يوم أن ظهر في الوجود أن تتولى دراسته لجنة فنية قوية ، ولو تم ذلك لكان اليوم بين أيدينا تقرير عظيم عنه ، هو وحده الذي يشبع الباحث وعليه ترتكز القرارات التي تصدر بشأن هذا المشروع الخطير ، والغريب أن يطلع علينا والمشروع كاد يدخل في دور التنفيذ أستاذ مختص من أساتذة كلية الهندسة يتشكك في صلاحيته ويطالب بدراسته دراسة جدية ، وينادي بأنه يرى المشروع مشروعاً غير عملي من الناحية الاقتصادية وأنه لم يدرس الدراسة الواجبة الكافية .

فهل مثل هذا كله يمكن أن يحدث في بلد آخر غير مصر ؟ اللهم ألهمنا الرشاد والتوفيق والتزام الخطة المثلى في الدراسة التي تضمن لمشاريعنا الاستقرار والاستمرار

أحمد عبد المنعم البكرداوي

إلى من يهمهم من أولي الأمر والمصلحين :

بدرة الملبس

في تقاليدنا القديمة كثير من الطرافة ، وقد حاولت أن أعود بالنظر نحوها كلما أردت أن أمتع نفسي بخاطر البهيج الذي تدخل السرور إلى قلبي في وسط زحمة الحياة الحاضرة بعد أن أصبحت حياة نثرية لا شعر فيها .

كنا ونحن صغار ندعى إلى بعض حفلات الأعراس . ولست أريد أن أصف تلك الحفلات في شيء من التفصيل ، فهذا أمر يطول ، ويحتاج إلى سلسلة مقالات قائمة بذاتها . وإنما أريد أن أصف هنا شيئا واحدا كان له أثر بالغ في نفوس عامة الحضور ، وذلك الشيء هو « بدرة الملبس » .

كان بعض أصحاب العرس [illegible] القراءة في العرس من خارج الدار [illegible] « بدرة ملبس » ثم يرى بحفنات كبيرة من الملبس [illegible] فوق رؤوس الجمع الحافل ، فينقلب النظر فجأة إلى صراع عنيف فيه تسلية عظمى . إذ كان الجميع يتسابقون إلى التقاط الملبس الجديد المختلف الألوان من أخضر وأحمر وأبيض وأصفر ، ولا يبالون بما يصيبهم من جراء ذلك من الدفع والخبط والعثر والوقوع ، وكانت الضحكات ترتفع عند ذلك ويعم المرح كل الحفل ، فالناظرون من بعيد فرحون بالمنظر المسلي ، والمشتغلون في الزحام فرحون بما يصيبون من الملبس ، ولاشك في أن الفوز في ذاته لذيذ وإن كانت الجائزة ملبسة واحدة .

وكان أغنياء (الفرسان) ينثرون بدرة من الذهب بدلا من بدرة الملبس ، وكانت تلك العصور الذهبية ذات رخاء ويسر ، فقد كان الناس يتعاملون بالذهب ، عندما كانت الجنيهات من الأصفر الرنان لا من الورق الهاهل ، وكانت الريالات كذلك من الذهب الإبريز ، وكذلك أنصاف الريالات وأرباع الريالات ، فكانت البدرة في العادة من أرباع الريالات الذهبية ، فإذا نثرت على الجمع انقض الناس على الأرض يحصرونها في حماسة عظيمة ، وكانت التسلية فيها أكبر والضحكات أعلى والفوز أعظم أثرا في النفوس .

ولكن هذا العصر قد تصرم وانقضى فيما تصرم وانقضى من أيام (زمان) الظريفة ، ونحن اليوم نعيش في عصر جاد لا يعرف شيئا من هذه التقاليد المرحة البهيجة .

وقد كان السبب في إنكار العصر الحديث لبدرة الملبس أننا اليوم نريد أن تكون أعمالنا مطابقة لما يرضاه عقلنا . فنحن نقول مثلا إن تلك العادة القديمة فيها نوع من الفوضى ، وفيها نوع من التظاهر لا يليق بنا ، ونزعم كذلك أن الكرامة الإنسانية ترتفع بنا من أن نرمي الملبس إلى الناس ثم ننظر إليهم وهم يتهافتون على التقاطه [illegible] تسأل المتفلسف فيقول إن بدرة الملبس [illegible] أيديهم إلى العطاء ، ويجعلوها سبيل [illegible] وإذا كان الإحسان يبعث شعور الرضى في قلب المحسن ، فإنه يبعث الشعور بالذلة والضراعة في قلوب المحسن إليهم ، والإحسان على هذه الصورة ما هو إلا نوع من حركات السيادة . فالمحسن بهذه الصورة لا يزيد على أنه يريد أن يقف من جمهور الناس موقف القوي القادر المسيطر الذي يهب الضعفاء . وهذا يعيد إلى الذهن تلك المناظر التي رآها الإنسان عادة فوق جدران المقابر المصرية القديمة التي تصور الأمير الميت في هيئة عملاق ، وتصور من حوله من أتباعه في صور الأقزام القصار القامة .

وقد أثرت أمثال هذه الآراء في الناس فانصرفوا عن بدرة الملبس ، تلك العادة القديمة الظريفة ، وأصبحنا اليوم لا نراها في الأعراس ، ولو فرضنا أن أحد (الفرسان) حدثته نفسه اليوم أن ينثر بدرة على الناس لما وجد أحدا ينحني إلى الأرض لالتقاط الملبس المتساقط ، لأنهم بلاشك

يخجلون من أن يظهروا في هذا المظهر بعد أن سمعوا الأقوال التي تنفرهم منه .

ومع ذلك كله فإن الماضي لا يزال يطل علينا من نوافذه بين حين وآخر ، والتقاليد القديمة وإن أهملها العصر الحاضر لا تزال حية في دمائنا وميولنا ، ولا عجب في ذلك ، فإن العلم يدلنا على أن الوراثة تحمل إلى الأجيال الجديدة طبائع الأجيال القديمة ، والطبيعة تأبى أن تخلق جيلاً من القطط لا يحمل ذيله في طرف جسمه كما كانت أجداده القدامى تحمل منذ أجيال بعيدة .

وإذا كانت بدعة اللبس قد اختفت من الأعراس فإنها لا تزال تظهر في مظاهر أخرى في أركان أخرى من حياتنا .

فنحن وإن كنا لا نعرف اليوم حفلات الأعراس كما كان يعرفها الأجداد ، ولا نعرف بدعة اللبس ولا بدعة النقط كما عرفها القدماء ، فإننا لا نزال [illegible] البدعة ، ونرحب بها في صور جديدة [illegible] العصر الماضي .

والملاحظ المدقق لا يجد صعوبة في أن يتتبع عادة (البدعة) في مظاهرها الجديدة المتعددة ، وأضرب على سبيل المثال هذه الحفلات الطريفة التي تقام في هذه الأيام كما قيل لتشجيع طلاب العلم على الجد والتفوق في الدرس وقد حضرت حفلة من هذا النوع منذ حين قصير وأستميح القارئ العزيز عذراً إذا بينت له كيف تطل فيها تقاليد البدعة من ماضينا في عصرنا الحاضر .

تجرى كل عام امتحانات للطلاب بعضها بعد نهاية الدراسة الابتدائية وبعضها بعد نهاية الدراسة الثانوية ، ومنها ما يتم بعد انتهاء الدراسة الجامعية والعليا بأنواعها المختلفة . ومن الطبيعي أن يكون في هذه الامتحانات ترتيب للناجحين ، ولا شك في أن كل عام يخرج لنا في كل صف من الطلاب فتى يبذ في درجاته على الآخرين فيكون ترتيبه الأول ، ثم يليه آخر يكون ترتيبه الثاني ، وهكذا .

وهذا يذكرني بأن الإنسان قد يكون ترتيبه الأول والأخير في وقت واحد ، وذلك إذا كان هو الممتحن الوحيد في شهادته الدراسية ، ولكن هذا قول نظري محض ، لأن الطلاب في مصر كثيرون ، فالأول يستطيع أن يباهي بأن وراءه مئات من الطلاب المتخلفين عنه . ولكن مهما يكن من الأمر ، فالشيء المؤكد هو أن كل امتحان لا بد أن يخرج لنا طالباً ترتيبه الأول ، وآخر ترتيبه الثاني ثم الثالث وهكذا .

فلنعد إلى ذكر الحفلة التي حضرتها منذ أيام ، فإنها كانت لتوزيع بعض مبالغ من المال على الأوائل في الامتحانات العامة بأنواعها . وسألت نفسي عند ذلك : ما الذي يقصد من [illegible] هذا الاحتفال الكريم ؟ . لقد [illegible] الاحتفال رائعاً ، وكانت العاطفة التي أوحت [illegible] ، ولكن مع ذلك سألت نفسي عن [illegible] تشجيع الطلبة على أن يكون منهم أول وثان وثالث ؟ وسألت نفسي عما عسى يكون لو منع هذا الاحتفال وأبطلت هذه الجوائز السنية . أيمكن أن يوجد امتحان يدخله الطلاب ثم يكون ترتيبهم جميعاً (الأخير) ؟ لقد جرت العادة على أن يكون لكل امتحان (أول) سواء منحت له الدولة جائزة أو ضنت بها .

فما السر الذي حدا بنا إلى كل هذا التفكير ؟ لقد قلبت الرأي على وجوهه والتمست الأسباب في مظانها ، فلم أخرج بعد الفكر الطويل إلا بأن هذا مظهر جديد من تقليد قديم أبى إلا أن يطل علينا من نوافذ العصور المنصرمة . إنها بدعة اللبس وقد اتشحت بوشاح جديد . إني أفهم الفكرة الأولى التي بدأت في أول الأمر عندما كان الطلاب يكلفون دراسة معينة في الأدب ثم يتقدمون إلى امتحان مسابقة فيفوز الأول فيهم بمساعدة وامتياز في

نهاية دولة

كانت الأيام تمر سراعاً وصلاح الدين قلق لا يهدأ ، مضطرب لا يستكين ، فقد أهمه حديث والده ورسالة نور الدين التي أمره فيها بقطع الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد ، وإقامتها للخليفة العباسي ؛ إنه يريد أن ينفذ وصية مولاه نور الدين ، ولكن الحوادث والمؤامرات التي مرت أمام ناظره منذ ولي الوزارة جعلته يتريث قليلا حتى يعد عدته ، ويتخذ للانقلاب الجديد أهبته ؛ فقد كان للفاطميين أتباع منبثون في أنحاء مصر ، وكانت هناك بقية من أمراء الجيش الفاطمي تدين للعاضد بالولاء ، وكان جنود الجيش من السودانيين والأرمن يعتبرون الدولة دولتهم ، ووجودهم في بقائها ، وكانت القاهرة ، أسوارها وحصونها ، مهدمة خربة لا تقف أمام مهاجم ، ولا تصد عدواً مهاجماً ؛ وكان المذهب الفاطمي أخيراً هو المذهب الرسمي ، يلقي الدعاة مبادئه في المساجد .

استعرض صلاح الدين هذه الحالة كلها أمام عينيه ، ورأى بثاقب نظره أنه يجب عليه أولا أن يقضي على هذه المظاهر ، فإذا وفق كان من اليسير عليه بعد ذلك أن يخطو الخطوة الأخيرة فيقطع الخطبة للعاضد .

وكان أخوف ما يخافه صلاح الدين أن يجمع أمراء الجيش وجنوده الثورة ، أو أن يتصلوا بالفرنج في الشام مستعينين بهم ضده ، ولهذا بدأ يتفقد سور القاهرة فوجده خرباً مهدماً ، وقد غدا كالطريق العامة لا يرد داخلا ، ولا يمنع خارجاً ، فاستدعى مولاه بهاء الدين قراقوش ، ووكل إليه أمر ترميمه وتجديده ، وكانت لبهاء الدين إرادة من حديد ، وعزيمة صادقة ، فجمع العمال والأسرى والسجناء ، ووكل بهم الجنود الأشداء يعملون ليل نهار ، وهو يتنقل بينهم لا يهدأ ولا يني ، فلم يمض شهران حتى كان السور يحيط بالقاهرة والفسطاط عالياً متيناً ، سليم الجدران ،

مراحل التعليم المختلفة . وأنهم كذلك قد يتطلب إلى الغش في أنواع أخرى من المسابقات لغرض من الأغراض ، أو أن تتجه ناحية من نواحي البر والإحسان ، ومن هنا يتيح لنا فرصة الكشف عن المواهب المخبوءة ، وإيقاظ الهمم الناعسة . ولكني مهما قلبت الرأي لم أفهم معنى لمكافأة الأوائل في الامتحانات العامة ، لأننا لا نشجع بها على شيء ، ولا نكشف به عن شيء ، إنها لا تزيد عن هبة محض كريمة .

وهنا نسأل سؤالا آخر : لقد كانت الجوائز في أول عهدها بضعاً ومائة من الجنيهات ، وقد أصبحت اليوم عشرة آلاف من الدنانير . ألا يصح لنا أن نتساءل : أيها أصلح لنا ، ولمستقبل أبنائنا : أن نعطي الأوائل هذه الدنانير أياً كانوا على هذا النمط الباقي ، أم أن نمد الحياة كل عام بمشروع جديد يفسح أمام الشباب مجالا للعمل وإظهار المواهب الدفينة فيهم ؟ إنها عشرة آلاف دينار أيها السادة ، وأظنها تكفي كل عام لإنشاء مصنع صغير أو معمل يتسع فيه المجال لأعمال الابتكار الفني أو معمل للبحث العلمي أو مدرسة أهلية نموذجية تساعد على التثقيف الصحيح ، أو ... أو إلخ . فإذا عز علينا الاهتداء إلى المشروعات المفيدة التي نصرف فيها هذه الدنانير ونستفيد بصرفها ، فلا أقل من أن نصور لأنفسنا هدفاً واضحاً ، ونسأل أنفسنا سؤالا صغيراً : ماذا شجعنا بهذه الآلاف من الدنانير ؟

فإذا كان ولا بد لنا من أن نصرف هذه الألوف بغير قصد ، فلنعد إلى تقاليدنا القديمة الصريحة ، ولنأخذ هذا الذهب الوهاج ، ونتجه به إلى ساحة نجمع فيها مئات الألوف من الأبناء ، ثم ننثرها عليهم كما كان (المرشان) يفعلون من قبل ، فهذا على الأقل يحيي لنا تقليداً عزيزاً ، ونكون قد عرفنا حقيقة ما نعمل ، إذ نكون قد عمدنا إلى شيء مقصود لذاته ، وهو إحياء سنة (بدرة اللابس) .

محمد فريد أبو حديد

قوى البنيان ، تسمو أبراجه وقلاعه حاميات من جنوده الأكراد والأتراك .

وذهب صلاح الدين بعد هذا إلى الاسكندرية ، فخرج أهلوها لمقابلته والترحاب به ، فكان لحفاوتهم أجمل الأثر في نفسه ، وجاشت في نفسه أحاسيس كثيرة متباينة وهو يمر في شوارعها ، وموكبه يشق الجموع المزاحمة الفرحة برؤيته ، فقد استعاد في تلك اللحظة الأيام السوداء التي قضاها محاصراً في الاسكندرية إبان قدمته الثانية إلى مصر ، وتذكر الصعاب التي عاناها ، والمشاق التي تحملها ، وهو يحارب الفرنج في البحر ، وجيوش الملك مرّى والوزير شاور في البر ، ولولا ما لقيه من معونة أهالي الاسكندرية لقضي عليه وعلى جيشه وقتذاك ؛ وكان صلاح الدين ممن يذكرون الجميل ، فأكرم أهل الاسكندرية في زيارته هذه ونثر عليهم الدراهم والدنانير ، وأنعم على أعيانهم حتى انطلقت ألسنة الجميع تدعو له بالنصر والظفر ؛ وكان صلاح الدين منذ حوصر في ذلك الثغر [illegible] حصونه وأسواره ، ويقوي ضعفها ، وما أصابها من إهمال أو وهن ، ولذلك قضى أيامه في الاسكندرية يشرف على عمارة أسوارها وأبراجها وأحيائها حتى اطمأن إلى قوتها ثم عاد إلى القاهرة .

ولم يقم صلاح الدين في القاهرة إلا أياماً ريثما أعدت قطع السفن الجديدة التي أمر بإنشائها في دار الصناعة ، ثم حملت تلك الأجزاء على الجمال ، وتقدمها بفرقة من جيشه حتى وصل إلى مدينة أيلة ، وكانت بها قلعة حصينة للفرنج يهددون منها الحدود الشرقية لمصر ، والملاحة في البحر الأحمر .

وركبت السفن ، وأنزلت إلى البحر ، وشحنت بالمقاتلة وهاجم القلعة براً وبحراً حتى فتحت ، وأسر جميع من فيها ، فأمر بترميمها ، وملأها بالأشداء من رجاله ، وعاد إلى القاهرة والأسرى في ركابه .

وما إن انتهى من تحصين العاصمة ، وتأمين الثغور والحدود حتى التفت إلى النواحي الدينية ، وكانت سياسته ترمي إلى النيل من سمعة المذهب الشيعي ، والحد من قوته بإفساح المجال للمذهب السني ، ونشره بين الناس ، وتثقيفهم على أساسه ، وكانت لدعاة المذهب الشيعي ووعاظه وعلمائه مراكز قوية في مساجد الفسطاط والقاهرة ، فوجد صلاح الدين أنه من الخرق في الرأي أن يقتحم على هؤلاء الدعاة مقامهم في تلك المساجد خوفاً من أن تثور النازعات بين أتباع المذهبين ، فيؤدي هذا إلى اضطراب الحالة في مصر . ولكنه اقتدى بمولاه نور الدين ، ورأى أن ينشئ في مصر المدارس ، ولم تكن مصر تعرفها من قبل ، وبدأ بسجن المعونة القريب من مسجد عمرو بالفسطاط فأحاله مدرسة شافعية ، ثم أتبعه بدار الغزل فأحالها مدرسة مالكية ، وسلك مسلكه أقرباؤه ، فاشترى ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه منازل العز بالفسطاط ، وجعلها مدرسة شافعية ، وأوقفت الأوقاف الكثيرة للصرف على هذه المدارس ، وأجريت العطايا لمدرسيها وعمالها وطلابها ، فأقبل الناس عليها ، وبدأوا ينفضون عن المذهب الشيعي وأشياعه .

ومضى صلاح الدين بعد هذا فأخفى شعار الإسماعيلية ، وأمر بإسقاط « حي على خير العمل » من الأذان ؛ وكانت هذه التغييرات تحدث في بطء وكياسة ، فلم يحس بها عامة الناس ، ومن أحس بها كان يستنكرها أولاً ، ثم لا يجد صدى لاستنكاره ، فيلوذ بالصمت ، والحياة تجرف الجميع في تيارها ، وتشغلهم بشؤونها .

ولم يبق أمام صلاح الدين إلا رجال القصر وأعوانه ، فبدأ بأمراء الجيش الفاطمي فعزلهم ، واسترد منهم إقطاعاتهم ، وأبعدهم عن منازلهم وقصورهم ، وأسكنها قواده وجنوده ، ثم أمر أخاه توران شاه فتتبع الجنود السودانيين في الصعيد حتى شتتهم ، فلاذوا بأذيال الفرار ، ولجأوا إلى بلاد

النوبة والسودان .

وعند ذلك بدأ صلاح الدين يقص جناحي العاضد ، ويسلبه قواه المادية ، فقطع عنه إقطاعاته ، واستولى على جميع ما كان بيده من البلاد ، ثم استولى على القصور الفاطمية ووكل بها ورتب فيها قائده الخادم بهاء الدين قراقوش ، فتولى حراستها بعين لا تغفل ، فكان لا يخرج منها خارج ، ولا يدخل إليها داخل إلا بإذنه .

وكان العاضد يرقب هذه التغييرات كلها دهشاً متعجباً ، فقد خيب صلاح الدين ظنه : إنه اختاره من بين القواد جميعاً ليكون وزيره لأنه رآه شاباً صغير السن ، فحسب أنه يكون في يده أداة طيعة ، وإذا به قد فاق جميع الوزراء السابقين دهاء ومكراً ، وقوة وجبروتاً ... لقد كان له في عهد الوزراء السابقين أثارة من قوة ، وها هو صلاح الدين قد قضى عليها ، وتركه سجيناً في قصره لا يستطيع حراكاً إلا والعيون ترقبه من كل مكان ؛ لقد كان يعول على جيش وقواد ، وها هو صلاح الدين قد أبعد منهم من أبعد وشتت من شتت ، وأصبح الجيش جيشه ، وكل قواده وجنده من الأكراد والأتراك . لقد كان له مندوحة في الحكم ماله الخاص ، وهو سلاح نافع ، وها هو صلاح الدين قد سلبه هذا السلاح الأخير ، فلم يبق له من مظاهر عزه الغابرة إلا فرس واحدة ، وحتى هذه الفرس الأخيرة لم يشأ صلاح الدين أن يتركها له ، فأرسل بالأمس يطلبها منه ، فأجابه العاضد إلى طلبته ، ولم يتمالك نفسه بعد خروج الرسول ، وقد طغت عليه الآلام ، وألمت به الأحزان ، فانفجر باكياً ، وظل على ذلك ساعة من الزمن وهو في بستانه ، ثم أحس قدوم قادم ، فمسح دموعه ، وانقلب إلى غرفته ، وأغلقها عليه ، وقد أحس المرض يدب في جسمه دبيباً .

ونام العاضد في تلك الليلة نوماً متقطعاً تخللته الأشباح والأحلام المزعجة ، واستيقظ عند بزوغ الفجر وهو قلق مضطرب منقبض الصدر ، فقد رأى فيما يرى النائم أنه ذهب إلى قبة الإمام الشافعي ، فصلى وجلس ، وإذا بعقرب مخيفة قد سعت إليه فلدغته .

قام العاضد من سريره مذعوراً وصلى الفجر ، وأحضر المصحف ، ولبث يقرأ فيه ساعة من الزمن ، فلما هدأت نفسه قليلاً ، استدعى أحد رجال قصره ، وأرسله إلى قبة الشافعي ، وأمره أن يحضر من يجده بها من الرجال .

ذهب الرسول إلى القبة ، فلم يجد بها إلا رجلاً صوفياً غريباً هو الشيخ نجم الدين الخبوشاني فأحضره معه ، وسأله العاضد عن حاله وأخباره ، غير أنه وجده رجلاً فقيراً لا ينبىء حاله عن شر ، فأكرمه وصرفه .

وكان صلاح الدين يتخذ طريقه هذه إلى هدفه على هدى من بصيرة نافذة ، وتجربة حكيمة ؛ غير أن نور الدين كان [illegible] ، فلم يزل يرسل إليه الرسل بعد الرسل يستعجله بالضربة النهائية [illegible] الدولة المحتضرة ، وهو يبدي [illegible] حتى يستكمل عدته ، ويهيئ جميع الظروف ؛ فلما أحس أن الظروف قد أصبحت مواتية جمع مجلساً من أمراء جيشه وقواده ، وفقهاء السنة ومتصوفيها ، وعرض عليهم رسائل نور الدين ، وسألهم المشورة والنصيحة ، فتردد البعض ، وأبدوا مخاوفهم أن يثور الإسماعيلية وأنصارهم ، وتحمس البعض الآخر للفكرة ، وأيدوها ؛ ومن عجب أن أشد الناس مهاجمة للعاضد ، وطعناً فيه ، وفي رجاله ، وتحبيذاً لقطع الخطبة باسمه كان هو ذلك المتصوف نجم الدين الخبوشاني .

وكثر القول ، وطال النقاش ، وانتهى الرأي أخيراً إلى أن يترك صلاح الدين تنفيذ الخطة لأبيه نجم الدين ، حتى إذا فشلت تدارك هو الأمر ، واعتذر بأن القوم أقدموا دون علمه وموافقته .

وفي يوم الجمعة الأولى من المحرم سنة ٥٦٧ هـ ذهب نجم الدين أيوب ومعه جماعة من أصحابه ، وأمراء دولته

إلى المسجد الجامع بالفسطاط ، واستدعى إليه خطيب المسجد فقال له :

— إن أنت ذكرت هذا المقيم بالقصر في خطبتك ضربت عنقك !

فدهش الخطيب وعجب ، ثم سأل :

— فلمن أخطب إذاً ؟

فقال نجم الدين :

— للخليفة العباسي المستضيء بالله .

وصعد الخطيب المنبر ، وقد استولت عليه الحيرة ، ونال منه الذعر ؛ إنه إن أطاع أمر نجم الدين ثار عليه المصلون وقضوا عليه ؛ وإن هو لم يطعه عرض نفسه للقتل ؛ وأتى الرجل خطبته مضطربا مرتبكا في أمر عاجز ، وهو لا يدري ما يقول ؛ وأخيراً هداه الموقف الشائك إلى أن دعا « للأئمة المهديين » ، ثم للسلطان الملك الناصر صلاح الدين ، ونزل فصلى بالناس ودعا لا [illegible] نفسه من الخوف ، فلما انفض الناس [illegible] إليه نجم الدين وسأله :

— لِمَ لم تفعل كما أمرت ؟

فقال الخطيب معتذراً :

— إني لم أعرف اسم المستضيء ولا نعوته ، فإذا علمتها دعوت له في الجمعة القادمة إن شاء الله .

وآثر نجم الدين الصمت ، وخرج فجمع في داره جماعة من الفقهاء ، وطلب إليهم أن يختاروا من بينهم واحداً يتولى الخطبة للخليفة العباسي في الجمعة القادمة ، فتردد البعض ، وتخوف البعض ؛ وأخيراً تقدم منهم رجل موصلي كفيف البصر اسمه « الأمير العالم » ، وقال :

— أنا لها أيها الأمير .

وفرح به نجم الدين ، فصافحه وقال :

— بارك الله فيك أيها الشيخ .

وتناهت هذه الأخبار إلى العاضد في مرضه ، فأدرك أن الأمر جد لا هزل ، وأن هذه نهاية النهاية ، فاشتد به المرض ، وكانت تعتريه نوبات من الغيبوبة ، فإذا أفاق جمع إليه أهله وأولاده ، وطفق يقبلهم ، ويضمهم إليه ، وعبراته تنهمر من عينيه . لقد آمن أن دولته ودولة الفاطميين قد انتهت ، ولكنه أصبح يخشى على أهله وأولاده عوادي الزمن ، فماذا هو فاعل من أجلهم ؟! أليس في الأسرة رجل كريم رشيد يوصيه بهم خيراً ، ولم يبق من أمراء الدولة وقوادها أحد يعهد بهم إليه ، وأخيراً لجأ إلى ما يلجأ إليه المضطر ، فأرسل يستدعي إليه صلاح الدين .

وحضر صلاح الدين ، واستمع إلى وصية العاضد إليه ، [illegible] كانت منهالكة منقطعة أن يرعى أهله وأولاده من بعده ، وتأثر صلاح الدين لقوله ، وبكى لبكائه ، ووعده [illegible]

واشتدت وطأة المرض على العاضد حتى قام لبعض حاجته فعثر وسقط ، وأرسل أهله في طلب طبيب القصر « ابن السديد » ، فشكا واعتذر ، وعلم العاضد باعتذاره ، فاشتد به الألم ، وقال :

« لقد انفض عني الجميع حتى الطبيب ، لم يبق في الدنيا إذاً خير ... » ، ووضع خاتماً مسموماً في إصبعه كان قد أعده لمثل هذا اليوم ، ومصه مرتين ، فاسترخت أعضاؤه ، وظل طول الليل يتلوى من الألم .

وأشرقت شمس يوم عاشوراء على أصوات النعي ، وبكاء الباكين ، وصراخ الصارخات والنادبات ، يعلنون جميعاً للملأ كله موت خليفة ، ونهاية دولة ؛ دولة سمت بمصر في عهدها إلى أعلى مراتب العز والمجد ، وأحلى طبقات الرفاهية والسؤدد .

جمال الدين الشيال

الجامعات الشعبية

[تحدث السكرتيرة العامة التي كانت من بين أول طالبات كلية «نيوباتل آبي» في اسكتلندا — وهي كلية شعبية من الطراز الأول ، ثم بعدها توجهت إلى انجلترا حيث تعمل الآن في السكرتيرية العامة بمعهد تعليم الكبار البالغين] .

تقديم :

لم تعد بالناس حاجة إلى أن ينبئهم مخبر بأن «العلم نور» فهؤلاء الناس يبدون هم بالطبع أقدر من الآخرين على إدراك ذلك النور ، وحسبهم أن يفتحوا عيونهم ليروا نور العلم باهراً وأثره في كل شيء ظاهراً .

ولقد تحقق القائمون على تعليم الشعوب أن الإنسانية لا ترجى لها أمن ورخاء ، وسلم وارتقاء ، إلا أن يسلكوا بالناس إلى العلم أقرب السبل وأيسرها ، ويمهدوا الطريق لطلابه ، ويفتحوا للراغبين أبوابه . وعلى هذا الأساس نشأت فكرة الجامعات الشعبية ، وانتشرت في معظم البلاد الأوربية .

كذلك كان مستقبل التعليم الشعبي موضع دراسة المؤتمر السنوي الذي عقده المعهد البريطاني لتعليم البالغين من عهد قريب . وانتهى الرأي فيه إلى الاعتراف بأهمية الحوار في التعليم . وهو اتجاه يدل على حقيقة فهم ما ركز في طبائع الناس ، من حيث إن الإنسان بطبيعته طلعة ، نزاع بفطرته إلى تعرف ما يجهل .

وفي المقال الآتي تحدثنا الآنسة «روى رفيعة بدر» إحدى طالبات أولى الجامعات الشعبية باسكتلندا عن حركة تعليم البالغين في أوربا ، ثم تقارن بين معهد «نيوباتل آبي» والجامعات العادية .

توفير التعليم الجامعي للجميع

معهد «نيوباتل آبي» يمهد السبيل للجامعات الشعبية البريطانية

ألم تر أيها القارئ الكريم كيف وجهت الحرب أنظارنا إلى حاجة عالم الغد للعقول السليمة الناضجة ، وما للتعليم من أثر في إعدادها ؟ وهل أتاك حديث القوة الذرية التي لا ندري أشر أريد بمن في الأرض من وراء كشفها أم أراد بهم ربهم رشداً ؟

لا جرم أن تبعة الخلاف العالمي تقع الآن — أكثر منها فيما مضى — على عاتق الرجل العادي . ولن يتيسر لهذا الرجل العادي الاضطلاع بحملها بغير التعليم . وأن الواجب يقضي بتمهيد مسالك التعليم وتمهيد سبله لكل فرد من المهد إلى اللحد . ذلك أن من السخف أن يتصور إنسان أن التعليم والتهذيب الفكري يقفان عند سن السادسة عشرة أو الثامنة عشرة ، أي عند ترك المدرسة أو التخرج من الجامعة ، وهي السن التي يغلب أن تقتصر معلومات الطلاب فيها على ما تلقوه من الكتب دون أن تكون قد تولدت في نفسه الرغبة في الاطلاع أو الميل إلى التحصيل .

فأما من حيث تعليم النشء ، فإن لائحة التعليم الحديثة تبشر بأعظم إصلاح عرف في تاريخ انجلترا إلى الآن . وما زال مشروع تعميم تعليم البالغين وهم في عقر دورهم موضع البحث والتمحيص .

ولكن ما هو نظام تعليم البالغين كما نعرفه الآن ؟ وكيف يمكن أن يؤثر في الحياة العامة ؟ إنه نظام يرمي إلى إشباع روح الاستقصاء ، والتحدي . تلك التي لا تكتمل في امرئ إلا بعد أن يكون قد جاوز سن الرشد . وهو نظام يعنى بإيقاظ الرغبة في استيفاء المعلومات التي يعتقد الفرد أنها تنفعه وينحرف به عن مجرد جمع معلومات ليس من ورائها فائدة في الحياة العملية . ويقرب للطالبين من آثار العلم ما كان بعيد المنال .

وبهذه نعرف مدى ما وصل إليه العقل البشري من تقدم وارتقاء، وما حققه من جليل الأعمال.

وإذا كانت الحروب تجر في أذيالها الخراب والدمار، فإنها كذلك تنزل وحي المدهشات، من المكشوف والمخترعات. وهي التي توسع للناس آفاق المدارك، وتفتح عيونهم إلى ما يحيط بهم من مساوئ اجتماعية، وتستنهض الهمم لمواجهة الحقائق والمطالبة بما هو خير منها. ولا شك في أن تغير الظروف وتطور المعلومات يستلزم العمل على إعداد مواطن يدرك حقوقه ويقدر تبعاته ويستطيع مقاومة الأزمات التي قد تهدد الاستقلال وحرمة الإنسانية بأبلغ الأخطار.

وفي هذا المقام يحق بنا أن ننوه ببلاد الدانمارك، فقد كان أنها من أكثر الديمقراطيات تقدما بما أصابت من نجاح باهر في تثقيف جمهرة الشعب من طريق تعليم البالغين، وإلى الأسقف «جروندفيج» رسول فكرة تعليم البالغين والشبان وغيرها. فإن أول جامعة شعبية أنشئت في هذه البلاد عام ١٨٤٤ بقصد مكافحة الثقافة الألمانية في إقليم «شلزويج هولستين». أما اليوم فإن في بلاد الدانمارك على ضآلة رقعتها ستين كلية شعبية داخلية.

أما في انجلترا فقد نشأت حركة تعليم البالغين على أثر الحرب العالمية الأولى، ثم اتسع نطاقها وازداد الإقبال عليها في أوساط العمال الذين استطاعوا بمعاونة نقاباتهم وجمعيات تعاونهم وغيرها من الهيئات إنشاء معاهد تعليمية خاصة بهم. ومن أبرز هذه الهيئات تلك التي تعرف باسم «جماعة تعليم العمال» فهي صاحبة الفضل في تيسير أسباب التعليم للعمال في جميع أنحاء البلاد، بإنشاء دراسات ليلية في مختلف العلوم والفنون، يضطلع بها محاضرون نابهون في مقابل جعل زهيد يقدر بنحو خمسين قرشاً في الشهر الواحد.

وقد تجدد الاهتمام بتعليم البالغين إبان الحرب الأخيرة بما هيأته إدارة الشئون العامة للجيش من إتاحة الفرصة لجميع الجنود والجنديات أينما كانوا وحيثما حلوا، لزيادة معارفهم وتوسيع نطاق مداركهم، وتأليف جماعات البحث والمناقشة والتي تلقى فيها أبحاث عديدة في واجبات المواطنين والتعليم بعد الحرب ونظرات في أحوال البلاد المختلفة، وغيرها من المسائل الحاضرة التي تفتح عيونهم إلى ما يحيط بهم كيما يحيطوا به من أهون سبيل. وحديثاً أيد المؤتمر السنوي الذي عقده المعهد البريطاني لتعليم البالغين فكرة البحث والمناقشة بطريقة الجماعات، على أنها عامل ديموقراطي عظيم الأثر في التربية السياسية.

الكليات الداخلية

لم يمض طويل وقت منذ كتب المركيز زتلاند إلى جريدة التايمز مقترحاً أن ينزل أعيان الريف للدولة عن بيوتهم الريفية الكبيرة التي طالما أرهقتهم نفقات صيانتها وأن يحولوا هذه المنازل الواقفة على أقدامها كليات شعبية. والبيوت الريفية الإنجليزية بما لها من جمال الموقع وما يحيط بها من حدائق غناء وأراض نضرة شاسعة، تعتبر من أجمل المناظر التاريخية الإنجليزية، وليس هنالك هدف لاستخدامها أسمى من جعلها مراكز لزيادة تثقيف الشعب البريطاني.

وليس هذا الاقتراح بدعة مبتكرة، فقد سبق أن نزل المرحوم اللورد «لوثيان» عن قصره الريفي المعروف باسم «دير نيوباتل» بمقاطعة دالكيث بالقرب من أدنبره ليكون أول جامعة شعبية داخلية للعمال في اسكتلانده. وكانت الفرصة التي أتاحت لي أن أكون من أوائل من التحقوا بهذه الجامعة من أنفس وأثمن تجاربي في الحياة.

ولو أنا وازنا بين كليات البالغين والجامعات العادية وتقصينا مزايا الالتحاق بهذا النوع الجديد من المعاهد لوجدنا أن كليات البالغين لا ترمي إلى إعداد الطلاب لمهنة أو حرفة خاصة، ولا تهدف إلى اجتناء مزايا اقتصادية، ولكنها تنزع إلى وضع الأسس لتربية إنسانية حرة.

ومناهجها معدة خصيصاً لمن يترك من الرجال والنساء، أن مصير مواهبهم إلى الفناء، سداً لما ينقص هذه المواهب من حاجة إلى الإرشاد والمران. أولئك الذين يضحون تضحية صبا كريمة ثم لم يعودوا إلى طوائفهم أو مهنتهم أو أعمالهم، وقد عولوا على أن يبذلوا ما اكتسبوه في خدمة مواطنيهم. أما نفقات التعليم فتتكفل بها السلطات المحلية وعمال النقابات. كما تتبع بعض الكليات، كمعهد «درنتوانل» مثلا، نظام قبول الطلاب بالتبادل مع معاهد البلاد الأخرى.

وقلما يصادف الإنسان في جامعات العالم ما يضارع قصر «درنتوانل» من حيث فخامة البناء، وما تزخر به جنباته من تحف أدبية وفنية رائعة، كلها مهداة لتكون في متناول الطلاب. وتزدان الجدران بصور ثمينة مما أبدعته عبقرية «رمبرانت» و«موريلوس» [illegible] تشهد في قاعة الجلوس تلك الصورة الأصلية التي [illegible] «فاندايك» وعلق الملك شارل الأول [illegible].

على أنه يتيسر أن تجد في غير هذا من الكليات مثل هذا الخليط من الطلاب الذين قدمت لهم في أول يوم لي بمعهد درنتوانل، فقد كان من بينهم عامل منجم وصانع مصنع فولاذ وموظف حكومي وصحفيون ومؤلف مسرحي وسائق ترام وبناءون وحاسب ذو مركز؛ فهم جمهور لا يعجز أي إنسان عن أن يفيد من مخالطته، وكلهم تتراوح أعمارهم بين الثانية والعشرين والخمسين ممن عركوا الحياة العملية، ثم جاءوا إلى درنتوانل طائعين مختارين لا يدفعهم إلى ذلك مطمع اقتصادي، ولكن يحدوهم فضل العلم والرغبة في دراسة المشاكل الإنسانية. ويبرهن ما توثق الصلة بينهم وبين أساتذتهم تحت إقامتهم بالكلية بعيدين عن متاعب الحياة الخارجية ومشاغلها، تلك التي لا يسلم منها حتى الطالب الراغب العادي إذا هو حاول الدراسة في منزله، حيث لا يتيسر في الغالب أن يحظى بحجرة مستقلة ويعتزل عن باقي أسرته.

وأبلغ من هذا أثراً أن تجارب هؤلاء الطلبة في الحياة تؤهلهم لاستيعاب ما يتعلمونه وتقديره حق قدره، خلافاً لطلبة المدارس الثانوية أو الكليات الجامعية من المراهقين الذين لم تتهيأ لهم الفرص الكافية لاختبار الحياة، كي يدركوا قيمة التعليم تمام الإدراك.

ولعل من أبلغ مزايا درنتوانل — كما في غيره من معاهد تعليم البالغين — أن الدراسة تقوم فيه على مبدأ الحوار والمناقشة، كما أشرت من قبل. وتتألف الفرقة الواحدة من أربعة من الطلبة على الأكثر، وتشكل جماعة دراسية صامتة خاصة، وهذا ما لا نظير له في معظم الجامعات العادية.

على أن أهم أغراض كليات البالغين تتجه إلى دراسة العلوم في جميع مظاهرها والمعايير التي تقوم النظم الاجتماعية على أساسها. ولذلك كان من بين المواد العملية التي يتألف منها البرنامج الدراسي بمعهد درنتوانل المسائل العامة والسياسية والاقتصاد والاجتماع وعلم النفس والفلسفة [illegible] غير أنه لما كان هذا المعهد ثقافياً [illegible] بصفة خاصة بالآداب والتاريخ والموسيقى بوصف أنها تمثل صور الحياة العليا كما يوحي بها الفن والفكر.

وقد يتساءل الناس عن إمكان توفير التعليم لجميع البالغين، وكيف يتسنى لكل عامل بالغ أن يعتزل عمله لتحقيق ما تصبو إليه نفسه من الالتحاق بكلية داخلية مدة سنة على الأقل؟ والجواب على ذلك أن كل عقبة تقف في وجه تحقيق هذه الآمال لا بد لها من الانهيار لو أننا كنا صادقين في إيماننا بأن هذا الاتجاه من التعليم يحمل له خطره لا بالنسبة إلى الفرد فحسب، بل بالنسبة للمجتمع ومستقبل العالم أيضاً. مثلنا في ذلك مثل ما يحدث من روح المصانع والمتاجر ومصالح الحكومة والجامعات والمدارس إبان الحرب من استعداد بل ومن رغبة ملحة في إخلاء موظفيها وعمالها من أعمالهم، فضلا عن أنها كانت في كثير من الحالات تدفع أجورهم

رباب الصبي «هياج»

كان ذلك الكوخ صغيراً قديماً ، يقع بالقرب من شاطئ ترعة صغيرة ملأها الماء الأخضر الرقراق . أما جدرانه فقد أثرت فيها السنون حتى تركتها لا تكاد تمسك نفسها لثقوبها الكثيرة ، وأصبحت ممراً مباحاً للريح ، وأشعة الشمس وضوء القمر تدخل منه وتخرج ولا مانع ، وصارت عمده الخشبية كشكل حلوى «السمسمية» تخرقها الأرض ، وذهبت الرياح الأربع وأمطار السحاب بلون الأعشاب الصفراء التي فرشت على سطح الكوخ ، فأصبحت ذات لون أشهب ، وانعكست صورة الكوخ في قاع الترعة فراع ذلك السمك الصغير ، وعندما طلع القمر ألقى ضوءه الفضي على الكوخ ، فأرسل هذا ظلاً قاتماً على شاطئ الترعة والحقل ، فراع الطيور التي تستيقظ في منتصف الليل .

وكان يسكن في هذا الكوخ القديم صبي يدعى «هياج» ومعه أمه . وعندما كان أبوه في النزع الأخير لم يوص له بشيء ، ولكنه أشار إلى رباب معلقة على الحائط وقال بصوت خافت يقطعه التنفس : «يابني اعذرني إني لم أترك لك ما ترثه عني ، اللهم إلا هذه الرباب ، فلذلك أرجو منك أن تحافظ عليها» .

ولكن «هياج» لم يفهم كلام أبيه لصغر سنه ، وعندئذ بكت أمه بكاء مراً ، ولم يلبث الرجل أن توفي .

وكان والد «هياج» يعزف دائماً على هذه الرباب التي تغير لونها لتقدم الزمان بها ، ونخر السوس بعض أجزائها . كان يعزف عليها في ليالي الصيف حين تنتثر النجوم اللامعة بكثرة في عرض السماء ، أو في ليالي الخريف حينما تهب الرياح الخفيفة ، فتسمع مختلف الألحان وجميل التوقيع من ربابه الضئيلة ، وعندما ينجم نجم زرعه وتظهر براعم زهوره وأشجاره يهرب إليها ويخرج من بينها الحشائش

وتضمن لهم وظائفهم إذا ما عادوا إلى الحياة المدنية .

وفي هذا المقام يحسن أن نعود بالقارئ الكريم إلى ما ارتآه الرجل القدير «السير ريتشارد ليفنجستون» من أننا يجب أن نعمل في كل شخص يؤدي عملاً عادياً ، آلياً كان أم عملياً ، وبخاصة إذا كان يشغل مركزاً رئيسياً ، لا بد له من فسحة من الوقت يصرفها في دراسة منظمة يتجدد بها الذهن ويتزود منها العقل ويصقل بها نشاط التفكير . وآية ذلك أنه لا توجد ولن توجد حرفة أو مهنة لا تكون الدراسة المنظمة لمن تقدمت به الأيام أنفع لصاحبها وأجدى عليه ، وأنه يندر أن يكون بين بني الإنسان من لا يستفيد منها . ومما يدعو إلى التفاؤل ما نشرته الحكومة البريطانية في الكتاب الأبيض من تقرير المراكز التعليمية من إعداد مناهج دراسية للمسرحين والمسرحات من القوات المجندة لإعدادهم إعداداً صالحاً للعودة إلى الحياة المدنية .

وقد افتتحت بالفعل كلية التعليم التابعة لإدارة الجيش ، وأهمها «بورنبك» وهو قصر دوق نورثلاند مقراً لها . والآمال معقودة على أن سوف تفتتح كثير غيرها عما قريب .

إننا الآن مقبلون على أكبر تغيير في حياة العالم ، والتعليم هو السبيل الوحيد إلى إعداد الرجل العادي للمساهمة في تقدم المجتمع والمشاركة في العمل على سعادته واطمئنانه .

(ترجمة) زكي رفيقة نسيم
عبد العزيز المغربي

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك
الإدارة — ٩ شارع الكرداسي
التليفون — ٠٦٧٦٩
القاهرة

والطفيليات ، ثم يحرك القضيب ، فيتناول ربابه ويسترسل مع قوسه حين تتحرك على أوتارها ، كما يدخن غيره من الفلاحين ويدفع دخان الغليون حلقات في الهواء ، بل كنا نسمع ربابه عندما يشتد البرد ، ويغطي الثلج وجه الأرض وتلبد الغيوم في السماء ، وتصفر الرياح .

ووري الأب التراب ، ولكن الرباب لم تزل معلقة على الحائط . فلما هبت الرياح ودخلت إلى الكوخ من ثقوب جدرانه اضطربت الرباب وتحركت يمنة ويسرة . وكلما أرسلت الشمس أشعتها أو دخل ضوء القمر من ثقوب الكوخ انطرح ظل الرباب على الحائط كشرف الماء ، فلما رآه « هيانج » فرح ، وظن أن اضطرابها من سحر الجن وأن ظلها من روحه .

وبينا كانت أم « هيانج » تنسج حصيراً في يوم من الأيام ، إذا بها تتوقف قليلا عن النسيج ، وتتأمل ابنها في عينيه ، ثم تشير إلى الرباب قائلة : « يابني إن أباك ترك لك هذه الرباب ميراثاً ، فإذا استطعت أن تعزف عليها كما كان يفعل فإني أعجب بك وأسر منك . » ولكن « هيانج » لم يفهم كلامها ، وإنما نظر إلى الرباب واجماً ، ولما حل وقت الأكل أشارت أم « هيانج » إلى الرباب قائلة : « يابني إن أباك ترك لك هذه الرباب ميراثاً ، فإذا استطعت أن تعزف عليها كما كان يفعل فإني أعجب بك وأسر منك . » ولكنه لم يفهم كلامها ، وإنما نظر إلى الحائط واجماً ، ولما أصبح الصباح واستيقظ « هيانج » من النوم كانت أمه بجواره ، فأشارت إلى الرباب قائلة : « بني ! إن أباك ترك لك هذه الرباب ميراثاً ، فإذا استطعت أن تعزف عليها كما كان يفعل فإني أعجب بك وأسر منك . »

ولما بلغ « هيانج » من العمر أربع سنوات أخذت أمه الرباب من على الحائط وناولتها له وهي تقول : « أنت الآن تستطيع إمساكها والعزف عليها ، فأرجو أن تعزف عليها ألحاناً جميلة مثل ألحان أبيك » . فحمل « هيانج » الرباب بين يديه ، وقد عرفها ، فهي صديقته الحبيبة التي رآها كل يوم على الحائط ، ولكنه لم يعرف كيف يعزف عليها ، فحرك القوس على أوتارها ، فسمع لذلك صوت كصوت نشر الخشب ، واستمر يحرك القوس جيئة وذهاباً فابتسمت الأم قائلة :

« إنك لذكي يابني »

وأصبحت القوس وتحريكها على الرباب درس « هيانج » الجديد ، فذاكر ذلك الدرس في البيت وعلى شاطئ الترعة وفي السوق وبين أرباض المدينة . وصادف أن سمع صوت الرباب صياد كان يجلس على شاطئ الترعة ، فضحك من « هيانج » وقال : « هل صوت الرباب الذي تعزفه فأصبح كصوت نشر الخشب أجمل أم الصوت الذي عزفه عليها أبوك ؟ » وضحكت منه امرأة عجوز كانت تغسل الملابس في جانب من الترعة وقالت : « هل ترك أبوك هذه الرباب الفضية الفسيحة ميراثاً لك ؟ » وتبعه أولاد السوق وصاحوا [illegible] يجمل بك أن تهدي هذه الرباب إليها فتعزف عليها » ولم يعر « هيانج » كلامهم سمعاً ، واستمر يعزف على الرباب ويطوف بها في كل مكان .

وذهب « هيانج » إلى مكان بعيد عن الناس وخال من الضوضاء ، فرأى حوله جبالا مرتفعة شاهقة ، وأمامه غابة كبيرة ، فعزف على الرباب بكل جهده ، فأطربه صوتها وهو يسمع لحنها ، وبينما هو كذلك إذ فاجأه صوت رقيق يقول : « أخي الصغير أريد أن تعزف ألحاناً جميلة ! إن كنت تريد فتعال أعلمك » . فتطلع حوله فلم ير أحداً ، فهمس خائفاً يخاطب نفسه : « عجباً ! من ذا المتكلم آنفاً ؟ » ثم لم يلبث الصوت أن عاد يقول : « انظر ياصغيري تحت قدميك تجدني ، انخفض وأمسك ياصغيري تجدني تحت قدميك . » ولما خفض رأسه رأى ترعة يسيل ماؤها سريعاً نقياً رقراقاً ، ويوقع على حصى الشاطئ ، أنغاماً رائعة ، وانتثرت كسر الصخور مختلفة الألوان في قاعها ، وقد

سقاها من السماء فاستدارت .

فعندئذ صاح «هباج» فرحاً : «يا أختي الجميلة ! إن رضيت أن تعلميني لحناً من ألحانك العذاب فما أعجزني عن شكرك ! » فردت الترعة قائلة : « إذا سمعت مني لحناً فحاول فيه ربابك . » ثم رفعت لحنها مرة ثانية ، وأرهف «هباج» سمعه لحنها ، ففهم كل دقائقه ، وتابعه مع الرباب ، فلم يسمع منها صوت كصوت الخشب حين ينشر ، وإنما تابع الحنان ، لحن الرباب والترعة ، ثم اجتمعا ، فلم يعرف الفرق بينهما . وشغل «هباج» والترعة بالتوقيع والغناء وغفلا عن كل شيء ، ثم أبطأت الترعة في لحنها تريد أن تستريح ، ولم تلبث أن أتمت اللحن ، وقالت «لهباج» : «لقد أصبحت ألحان ربابك جميلة جداً ، فامض الآن للأمام قليلا وإلى اللقاء يا صغيري . » وخفت صوتها شيئاً فشيئاً ، فلم ينتظر «هباج» وإنما انطلق سائراً إلى الأمام .

ووقع «هباج» ألحانه الجديدة [illegible] صداها ، فكثرت الأصوات ثم اختلطت متجاوبة ، وكأنها تعيده من لحنه ، فطرب لذلك أيما طرب . وبينما هو غارق بين لحنه وصداه إذا بصوت حنون يناديه : «أخي الصغير أتريد أن تتم ألحاناً جديدة ؟ إن كنت تريد فتعال أعلمك » فالتفت ونظر من حوله فلم يجد أحداً ، فروع وهمس يخاطب نفسه : «عجباً ! هل استيقظت الترعة من نومها ولحقت بي ؟ » ولكن الصوت عاد يقول له : «أنا هنا يا صغيري ، فارفع رأسك تجدني . » فلما رفع رأسه وجد نسمة رقيقة واقفة فوق رأسه ، ثم تأرجحت أعطافها كما يختال الملك بين أجنحته ومطارفه ، وأخذت تغني لحناً جميلا رائعاً ، فأخذت الحشائش والزهور ترقص طرباً على وقع لحن النسمة .

ففرح «هباج» وأجابها قائلا : «يا أختي اللطيفة ! إن رضيت أن تعلميني غناءك الرائع ولحنك الظريف فما أعجزني عن شكرك » فأجابته النسمة قائلة : «إذا سمعت غنائي فتابعه ربابك . » ثم غنت مرة ثانية ، وأرهف «هباج» سمعه إلى غنائها حتى فهم دقائق لحنها ، فتابعه ربابه جهداً نفسه كل الجهد أن يحاكيه ، فتابع صوت الرباب وصوت النسمة ، ثم اجتمعا صوتاً واحداً ، فلم يظهر فرق بين الصوتين ، عند ذلك فرح «هباج» والنسمة فرحاً شديداً ، فأخذت النسمة توقع لحنها و «هباج» يتابعه ، يسرعان مرة ، وأخرى يتمهلان ، ومرة يرفعان الصوت ، وأخرى يخفضانه ، طرب في طرب دون توان أو فتور ، وبين الحشائش والزهور فرقصت متمايلة يميناً مرة ويساراً أخرى حتى كلت من الفرح . ولما أرادت النسمة أن تتحول عن مكانها كفت عن الغناء ، وقالت «لهباج» : «الآن قد تعلمت ألحاناً جديدة ، فدعني أذهب إلى مكان آخر ، وإلى اللقاء يا صغيري » ثم غادرت مكانها في حركة خفيفة وانطلق «هباج» سائراً إلى الأمام .

ووقع ألحانه الجديدة واحداً بعد آخر ، فكلما رنت ربابه ألحان الترعة تذكر [illegible] ونشاطها ، وكلما رنت ألحان النسمة تذكر رقتها ولطفها ، واستمر يوقع الألحان حتى دخل الغابة وهو لا يكاد يشعر ؛ وبينما هو يسير إذ سمع صوتاً يقول : «أخي الصغير أتريد أن تتعلم ألحاناً جديدة ؟ إن كنت تريد فتعال أعلمك . » ولكنه لما نظر حوله ولم يجد أحداً قال في نفسه : «عجيب ذلك ! من ذا الذي يريد أن يكون أستاذي في الموسيقا هذه المرة ؟ » وإذا بالصوت يعود فيقول له : «يا صغيري انظر إلى ما بين أوراق الأشجار الخضراء الكثيفة ، فإنك إن فعلت وجدتني . » فنظر «هباج» في التجاويف التي بين أوراق الأشجار ، فوجد طائراً جميلا يغرد تغريداً رائعاً حسناً ، ويرقص بين فروع الأشجار الخضراء ، كأنه راقصة حسناء ترقص في قاعة الرقص الجميلة .

ففرح «هباج» وأجابه قائلا : «يا أخي الطائر الجميل ! إن رضيت أن تعلمني غناءك فإني أشكرك من كل قلبي » .

فقال الطائر : « إذا سمحت عنالى مناسبى ربابك . » ثم غنى مرة ثانية ، وأرهف « صبايغ » سمعه إلى غنائه حتى فهم دقائق اللحن ، فتناول ربابه ، وقد مرت يده على إثارة أوتارها ، تحرك القوس صاعداً هابطاً بخفة ويسر ، وكانت الرباب تتبع صوت الطائر ثم اجتمعا ، فلم يكد يبين فرق بين الصوتين ، وابتهج « صبايغ » والطائر لذلك أشد الابتهاج ، وأخذ يوقع أحدهما اللحن على ربابه والآخر يغنى فى مواجهته ، وقد أشرق وجهاهما بالابتسام ، ثم ظمىء الطائر وأراد أن يشرب الماء ، فتوقف عن الغناء وقال « لصبايغ » : « الآن تعلمت ألحاناً جديدة كثيرة فدعنى لأشرب وأستحم ، وإلى اللقاء يا صديقى » وخرج الطائر من الغابة .

وبعد ذلك استطاع « صبايغ » أن يوقع على ربابه كل لحن جديد وكل نغم رائع ، ليست ألحان الترعة ، ولا ألحان النسمة ، ولا ألحان الطائر ، ولكنها ألحان جديدة مؤلفة من كل تلك الألحان كألوان مختلفة اختلط بعضها مع البعض الآخر فصارت لوناً واحداً . وذهب « صبايغ » مرة إلى الترعة ، ليرى هل استيقظت أم ما زالت تستمر فى النوم ، فلما رأته وسمعت ألحانه الجديدة قالت له : « إن ألحانك الآن أصبحت أحلى من ألحانى ، فأرجو منك أن تعيد التوقيع مرة ثانية لأسمعها فأنام نوماً هادئاً . » وأخرى ذهب إلى النسمة ليزورها ، فلما رأته وسمعت ألحانه الجديدة قالت له : « إن ألحانك الآن أصبحت أروع من ألحانى ، فأرجو أن تعيد التوقيع مرة ثانية كى أسمعها وأسر بها » . وثالثة ذهب إلى الطائر ليرى رقصه الجميل ، فلما رآه وسمع ألحانه الجديدة قال له : « إنك الآن تستطيع أن تغنى ، فأرجو أن تعيد توقيع ألحانك الجديدة كى آخذها منك » . وكان « صبايغ » يطير فرحاً حين حيته بها الإطراء ، وأخذ ألحانه الجديدة واستمر يعزفها دائماً ، فنامت الترعة نوماً عميقاً ، وابتسمت النسمة ابتسامة خفيفة ، وغرد الطائر تغريداً دائماً . وذهب « صبايغ » بعد ذلك إلى الترع والنسمات والطيور الأخرى ليزورهن ويعقد معهن صداقة جديدة ، فلما سمعن ألحانه الجديدة التى أبدعها سررن بها غاية السرور وغنين له أغانيهن الجميلة الرائعة الألحان .

وكادت أم « صبايغ » تجن من شدة الفرح بابنها وألحانه الجديدة . فلما بلغ رشده صارت ألحانه فى غاية الروعة والجمال ، فقالت له أمه : « إن ألحانك الآن أصبحت كألحان أبيك تماماً ، وإعجابى بك قد بلغ غاية الإعجاب ، فاخرج يابنى من البيت بهذه الرباب ميراث أبيك وانشر ألحانك بين الناس » . فأطاع « صبايغ » أمر أمه وخرج من الكوخ .

وكان فى المدينة قاعة للموسيقى والغناء ، بنيت درجات مدخلها وأعمدتها من الرخام الأبيض ، وصنع مسرحها من الحرير ، وأحيط بالأطر المزركشة والزخارف الذهبية ، وكان لها طريقة تأخذ بمشاعر القلوب ، وكان يقيم حفلات فى هذه القاعة كبار الموسيقيين ومشاهير المطربين ، وإذا ما ظهروا على المسرح كانت المقاعد غاصة بالسامعين من الرجال والنساء ذوى الشخصيات الموقرة والملابس الفاخرة . كان أولئك الرواد كلما سمعوا لحناً جديداً أو أغنية رائعة أغمضوا عيونهم وأرمأوا رؤوسهم ليظهروا قدرتهم على تذوق لذة الموسيقى والغناء ومعرفتها التامة ، وإذا ما انتهى موسيقار من توقيع لحن ، أو أتم مطرب غناء قطعة ، عبروا من سرورهم بالتصفيق الرقيق الموقر ليشعروا الناس أنهم من ذوى الوجدان الحى ، وأن ذلك اللحن أو تلك الأغنية حازت رضاهم ، وعند ذلك يطير صيت الموسيقار أو المطرب فى المدينة .

ولما ذهب « صبايغ » إلى المدينة دعاه صاحب القاعة ليعزف فيها على ربابه ، وأعلن الخبر بين الناس ، وحدد لذلك الميعاد ، وألصقت إعلانات جميلة ملونة على جدران

المنازل في الشوارع الكبيرة ، وقد كتب عليها « الألحان الجديدة . الأنغام الرائعة . للموسيقار الريفي » . وكان خط هذه العبارات طريفاً عجيباً ، وإنما يجتذب القلوب . فلما جاء الميعاد غصت مقاعد القاعة بالرواد الكثيرين الذين تعودوا التردد على هذه القاعة ، وقد فتحوا أفواههم استغراباً كأنهم ينتظرون الطعام .

صعد « هيامج » إلى المسرح وكان يلبس جلباباً قديماً ممسكاً بيده الربابة ميراث أبيه ، فأدى التحية للرواد . ولكنهم لما رأوه عبست وجوههم ، وقالوا في أنفسهم : « لقد رأينا كثيرين من الموسيقيين والمطربين ، ولكننا لم نر مثل هذا الموسيقي الفلاح ، وما أقبح هذه الربابة التي تشبه رباب الشحاذين التي يسألون بها الناس ! » وعزف « هيامج » ربابه فانتشرت ألحانها في القاعة ، وكان لحنها هادئاً ، فسمعها الرواد في وضوح وجلاء . ولكن بعد برهة صدرت منهم أصوات خفيفة ، [illegible] تهدر كموج البحر ، فأسرع « هيامج » في العزف ورفع ألحان ربابه ارتفاعاً كبيراً . ولكن [illegible] على صوتها كأنها تريد أن تقطعها ، وخيل إلى « هيامج » أن الرواد يقولون : « لم نكن نسمع مثل هذه الألحان ؟ ... ليست لها روعة ولا لذة ؟ ... من أين جاء هذا الشحاذ ؟ ... إنه شحاذ وموسيقي دعي ! ... لقد وسخت ألحانه آذاننا فيجب علينا أن نغسلها » . ثم قاموا وتفرقوا يريدون أن يغسلوا آذانهم ، ورفع الشيوخ شواربهم ، واحمرت وجوه السيدات وانتفخت ، ولعنه الفتيان والفتيات ، وغضب الرواد المترفون غضباً شديداً ، فخرجوا من القاعة حتى لم يبق إلا « هيامج » وحده على المسرح ، فتوقف عن العزف وخرج هو أيضاً من القاعة ، وبعد أن سار برهة أدار رأسه ونظر إليها نظرة ساخرة وانصرف .

ورجع « هيامج » إلى شاطئ الترعة ودخل الكوخ الصغير القديم . فلما رأته أمه سألته قائلة : « إني أظن أنك يا بني تخرج إلى الناس وتنشر ألحانك بينهم ، فلماذا رجعت سريعاً ؟ » فأجابها قائلاً : « إن الناس لا يريدون أن يسمعوا ألحاني لذلك رجعت » . فضحكت أمه وأخذت رأسه في حجرها قائلة : « لا بأس عليك يا بني ! إذا كان الناس لا يريدون أن يسمعوا ألحانك ، فإني أريد أن أسمعها ، فوقع على ربابك لأنني إذا سمعتها زاد نشاطي في نسج الحصير » . وقبلت وجهه قبلات حارة كما كانت تقبله في طفولته .

وبعد ذلك كنا نسمع ألحان الرباب خرجت من الكوخ الصغير القديم حيناً بعد حين ، في ليالي الصيف حين تنثر النجوم اللامعة الكثيرة في السماء ، أو في ليالي الخريف التي تهب فيها الرياح الخفيفة ، أو في مواسم حصاد الفلاحين زروعهم ، أو في الشتاء القارس عندما يغطي الظلام وجه الأرض ، وفي القرى التي تقرب من الكوخ أخذ [illegible] خرير الماء في الترع ، وهبوب حفيف الرياح [illegible] الطيور الجميلة ، كأنهن يطربن مع ألحان رباب « هيامج » . وصارت الحقول بجوار الكوخ الصغير القديم قاعة الموسيقى والغناء .

وعندما مازجت ألحان رباب « هيامج » أصوات الترع والرياح والطيور ، وانتشرت في الجو وعمت ، صارت كأنها حرير لذيذ خفيف يطفو على أجسام السامعين ، فرجعت قوة الفلاح المكدود إلى جسمه ، ونشطت روح العامل المتعب الأعصاب ، ونسي الحداد حرارة النار وألمها ، وذهب حزن المرأة العجوز التي فقدت وحيدها وحسرتها . سمعها كل الناس ، فشعروا براحة وسرور ، فغنوا جميعاً : « نشكر الصبي « هيامج » ألحان ربابه » .

ولكن رواد قاعة الموسيقى التي بنيت بالرخام الأبيض زهدوا في سماع تلك الألحان .

عبد الله داعي . كر

بين المسموع والمقروء

ملك الكبريت

أمة السويد أمة من أسبق الأمم إلى الناهضة . ظهر ذلك في مثابرتهم في صناعة الكبريت حين لم يكن لديهم من خاماته شيء . وبالجهد الشديد ، والصبر الذي لا ينفد ، ملكوا ناصية هذه الصناعة ، لا في السويد ، ولكن في أوربا كذلك . ونحن هنا في مصر ، وفي الشرق ، لا نزال نذكر كبريت الجمّال ، وغير الجمّال ، وكانت كلها من السويد . والذين ملكوا الكبريت في السويد ، ملكوه في الأرض .

وأسطع نجم كان لهم في هذه الصناعة رجل اسمه كروجر ، كان ملك الكبريت ، ورجلاً من أكبر رجال الصناعة في الدنيا ، ومن أثرى الأغنياء الذين عرفوا في القرن العشرين .

وفي اليوم الثاني عشر من مارس عام ١٩٣٢ سمع الناس خبراً هائلاً : أن إيفار كروجر أطلق الرصاص على نفسه فأصاب مقتلا ، في شقة في منزل من منازل باريس .

وما سمعت الدنيا هذا الخبر الفاجع حتى اهتزت له أكبر اهتزاز . وأخذ الصحفيون من كل جانب يرثونه بالمراثي الطوال الحزان . وجريدة التيمس ، كبرى جرائد الإنجليز ، كتبت عنه افتتاحية أخذت فيها تعدد مناقبه ، وتقول عن هذا الرجل العجيب إنه أمضى سنوات ما بعد الحرب الماضية يحاول أن يعيد الدنيا التي أمرضتها الحرب إلى ما كان لها من صحة ، وأخذ يشبهه بالممرضة الرؤوم قامت ليلها ونهارها إلى جانب صاحبها العليل تعطيه الدواء وترجيه بالشفاء .

ودفن الرجل . ولم يمض على دفنه ساعات حتى أخذت تشيع عنه الفاضحات السود . وأخذت الأيام تتوالى فيكشف كل يوم من خبيئة تدل على أن الرجل كان دجالا كبيرا ، وكان نصاباً هدّاماً ، وأنه سلك كل طرق الاختراع والابتداع والكذب لتظهر شركاته العديدة الواسعة المنتشرة كل انتشار في أوربا ، في مظهر الدعة والرخاء ، وما كانت كذلك .

فأي رجل كان هذا ؟ إن الذين سمعوا باسمه كانوا آلافاً كثيرة . أما الذين رأوه رأي العين فكانوا أقل من أولئك كثيراً . أما الذين تحدثوا إليه وعرفوه فأقل من هؤلاء قلة . وعرفه العالم بأنه الشويدي ملك الكبريت السويدي .

كان كروجر رجلا من أغرب ما خلق الله . إن الناس [illegible] المجد ، وأحبوا الشهرة . والكثرة الكبرى تحبها ومن لم [illegible] ، تحب الشهرة وهي من الجد على بعد القمر ، ومن الناس من يطلب ظاهراً من السمعة الحسنة واحتفال [illegible] من السمعة واحتفال الناس . ولكن [illegible] كروجر كان يكره الظهور أكبر الكره . كان يكره أن يُرى ، ويكره أن يُسمع ، ويكره أن يتحدث عنه الناس . كان في الشركة ، بين إخوانه ورفاقه ، قليل الكلام قليل الإفاضة ، حتى أسموه بالشاب الصموت . وكان في الدنيا ، في عالم الأعمال وعالم الصناعة والتجارة وشتى النشاط ، يحسن الهرب من الناس ، ويحسن التخفي ، فأسموه بالطيف الخفي والخيال الهارب .

وكره في كراهته الظهور فنادق المدن ، فلم يكن ينزل بها . فكان له موضعاً مبناً في كل عاصمة ، في أوربا وأمريكا ، شقة لا غير . شقة ضمت كل وسائل الراحة ، وكل متعة من متع الحياة ، إلا الطعام . وكان بكل شقة خادم عجوز واحدة على استعداد لنزوله في أي حين .

على أن كروجر لم يكن من ذوي الحاجات الرفيعة ، ولم يكن له من متع الحياة متع سامية إلا « زهرة الوادي »

كان يود أن يراها فوق مائدته كل حين ، مهما اختلفت الفصول وتباينت الأجواء . وكان يحب الكتب ، ويحب من الفنون الصور ، ولكنه لم يكن جمّاعا لهذه أو تلك ما عاش .

وكان قرّاء ، قرّاءً لأكثر الآداب الأوروبية ، يقرأها من أصولها لا من التراجم . وأعانه على هذا علم باللغات واسع ، فكان إلى جانب لغته السويدية ، يحسن الإنجليزية ، ولكن كان ينطقها بلهجة أمريكية شاهدة على السبع السنوات التي قضاها في تلك الربوع ، من سن العشرين إلى السابعة والعشرين . وكان يحسن الفرنسية ، وأحسن الألمانية ، ونطقها كما ينطق الأمريكان لا كما ينطق السويديون .

وكان مثل نابليون ، يطلب النوم في أية ساعة فيجيئه . عاد ذات ليلة في نيويورك من سهرة في مؤتمر ، وعاد معه أحد أعوانه ، فبدأ عونه يكتب تقرير ما دار في المؤتمر من نقاش . ولكن كروجر لم يستقر به في المجلس قعود حتى نام ، ونام عميقا . واستمر الرجل يكتب ، حتى كتب شيئا أيقظه ليقرأه عليه ، ويتناقشا فيه . وكان يصحو على أتم استعداد للفحص والمجادلة ، فيصحح حذفا وإثباتا ، ثم يعود في ثوان إلى النوم ، ليستيقظ من بعده استيقاظا جديدا ، لنقاش جديد ، يجيء من بعده نوم ، وهلم جرا .

ويرجع إلى هذا الأمر نقيضه . كان إذا شغله شاغل ، أو قام يصمم لمشروع ، نسي النوم ليالي متتالية ، ونسي مع النوم الطعام . وقد يفرد أصحابه بلقيمات فيأكلها وهو جالس على مكتبه .

وكان أعزب ، وعاش حياته أعزب . ولم يعرف عنه أحد طول عمره أنه اتصل بامرأة ، ثم ينكشف الأمر عن صلة له بامرأة دامت سنين ، ولم تكن تلك المرأة بذات بال .

فهذه صفاته . كان لا بد من ذكرها لنقرنها بالعمل الجبار الذي قام به هذا الرجل في حياة حافلة . فالذي قام به ، وبالسرعة التي قام بها ، لم يقم بمثله أمثال له كثيرون .

فقد صنع هذا المهندس السويدي ، من نفسه ، في زمن غاية في القصر ، دكتاتوراً في عالم الكبريت ، يتصرف في حاضره وفي مستقبله ، لا في السويد وحدها ، بل في الدنيا كلها . وشركاته حددها ، ومدّدها ، ونشرها في شرق أوروبا وغربها ، وشمالها وجنوبها ، حتى صارت أكبر وحدة اقتصادية في قارة العلم والصناعة والمال .

ولم يقتصر نشاطه على الكبريت ، فقد امتلك حصصا في مؤسسات أخرى ، كانت أكثرها حصصا فعّالة ، تدور بمؤسساتها حيثما دار ، وتفعل بها ما أراد . فكان له في البنوك الأوروبية حصة ، وفي الرهونات الدولية حصة ، وفي السويد كان يمتلك في صناعة الورق ، ويمتلك في خامات الحديد ، وفي الأسمنت والكهرباء والتليفون وغيرها . وكان يوسّع سلطانه كل عام . وقبل أن يموت بقليل كان قد توجه إلى استغلال الذهب يمتلك في صناعته .

كان كروجر مهندساً مدنيا ، وخبيراً في الفولاذ . وعاش في أمريكا والمكسيك وجنوب أفريقيا عيشة شاب مغامر ، [illegible] إمتاع ، وفيها غبطة وإشباع . وعاد إلى استكهولم ، عاصمة السويد ، وهو ابن بضعة وعشرين عاما ، فألف شركة أسماها « كروجر وتول » ، ولم تلبث أن كسبت مكانا مقدّما ممتازا . وفي عام ١٩١٣ وجّه كروجر همه أول ما وجه إلى صناعة الكبريت ، ولم تكن غريبة عنه كل الغرابة . فأبوه ، أرنست كروجر ، كان مديراً لشركة للكبريت صغيرة في البلدة التي نشأ بها ، بلدة كلمار .

وجه كروجر همه إلى صناعة الكبريت ، ولم تمض سنوات أربع على الشركات الكبريتية التي اتصل بها ، حتى استطاع أن يغري منافسيه من صناع الكبريت أن ينضموا إليه ، بقضهم وقضيضهم ، وكل ما يملكون من عدة ومال . ومن هذه الشركة الجديدة خرجت مجموعة المصانع الكبريتية السويدية المتحدة عام ١٩١٧ ، ورأس مالها ٤٥ ألف ألف كرون .

وما استقرت تلك المصانع . . .

أحمد زكي

أغنية الريف :

ناعورة الرياض (*)

ناعورة في الرياض تزجي الدجى بالأنين
وتشتكي كالراض في لوعة وشجون
وصبوة ، واحتراق !
من قسوة وفراق
كزفرة المشتاق
لا ترقد الليل إلا هويمة ثم تنهض
تصحو إذا الليل ولى وأقبل الفجر يركض
في عنا الفلاح !
تصحو كطفل مُلاح
من بين أنسج الرياح
من « الأول » البعيد أتت بلحن [illegible]
تجر ذيل الخلود من [illegible] زمان
تفني العصور وتفنى
وعمرها ليس يفنى !
وليس تعرف وهنا
قد أقبلت من « أثينا » بلت تقل أنينا !
آلامها لن تهونا والدمع يجري هتونا
كديمة وكفاء !
وري به الصحراء
فتشبه الخضراء
كأنها بالدموع ترجو من الحب قربا
لكنه في هجوع يتيه كبراً وعجبا
وإذ ترى منه صدا
تسقي الحشاشة ودا
من منهل صار نقدا
في قلبها يتوقد جمر يذيب الجلمد
إن تحتسي الماء يزدد جذوة الحب تخلد
كالدهر إذ يتجدد
فعمره ليس ينفد
وما مضى اعتاض في الغد
تقضي الدجى تصور خياله في النجم
وحينما الليل يقفر تقوم ، والهم يصمي
فؤادها بالسهم
من ربة الحب ترمي
به الحشا المستدمي
قد أبدعت من جماد تطاول الحس فيه
في السائل السواد يبكي على ماضيه
أليفه ، ورفيقه
بحرقة المهجور
يشتاق في الضمير
تعبيره كالكمان به يبث الحنينا
يبثه كل آن ولا يني يتغنى
بحزن الأغنيات !
وأوجع الأنات
تفيض بالحسرات
ناعورة المستقى أنشودة للفناء
وطالما سامرتني في الليلة الظلماء
في حين لم ألق سامر
فأقطع الليل ساهر
أحصي النجوم الزواهر
(كذا)

أحمد عبد الغفور العطار

(*) الرياض : عاصمة نجد ، وهي مشهورة الآن بنواعيرها

في صحافة الأدب العربي :

الموت يتكلم

[للشاعرة إيلا هويلر ولكوكس بتصرف]

يا من تُراع إذا تقول صديقي فيم ارتيابك ؟
هوّن عليك ففي ابتعادك عن بني الدنيا انتقاؤك !
لك ضجعة عندي تُريحك من سيوف زمانك اصطخابك ؟

* * *

أو لست من دنياك تسبح في خضم هائل
يغشاك موج فوق موج تحت غيث هاطل
لم لا تُسر إذا وصلت مبكراً الساحل !

* * *

أنا في الحياة كمنجل في كف حاصد العمر
أهوى على الدنيا فأقصيه من الزهر النضير
ولا مبالاتي لنسق الروض بالعدد الكثير

* * *

كم من مريض قد شفاه الدهر بالداء العياء
متململا يرجو الشفاء من الطبيب ولا شفاء
فشفيت سُقمه فكان له على يدي الدواء

* * *

سيزول عنك الجهد حين تبيت في نوم عميق
يا طالما كانت تصادمك المشاق في الطريق
فإذا انتصرت على مضيق زل نعلك في مضيق

* * *

ماذا تركت على الحياة سوى حياة تعبت
كانت قلوبهم تسر عليك بالحقد الدفين
قد بت مرتاحاً وباتوا — رغم بعدك — مشفقين !

* * *

يا رب منقلع كئيب مدّنيه يد القدر
عمرته دنياه بمختلف المكاره والغير
وحبته الحمام رحمة مما يكابد فاستقر

* * *

يا من تُراع إذا تقول صديقي فيم ارتيابك
هوّن عليك ففي ابتعادك عن بني الدنيا انتقاؤك
لك ضجعة عندي تُريحك من سيوف زمانك اصطخابك ؟

محمد رجب البيومي